روايات مصرية للجيب

8

الكابوس

سافاري

مقــــدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافرية) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًّا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

* * *

فلننعش ذاكرتنا !

فى الجزء الأول من هذه الرواية ، عدنا إلى وحدة (سافارى) بأبطالها المعروفين لنا الآن .. (علاء عبد العظيم) الشاب المصرى الذى يحاول إثبات ذاته قرب خط الاستواء ، و (برنادت) الكندية الحسناء التى وجدت ذاتها فعلاً ..

فى الآن ذاته تعرفنا جرائم قتل بشعة بعض الشىء ، تدور كلها فى (كندا) .. ثمة سفّاح من هؤلاء الجوّالين الذين يمارسون جرائم متلاحقة متتابعة .. فى كل مرة نجد ضحية وحيدة تلقى نهاية شنيعة ..

وعدنا إلى (سافارى) لنعرف أن (برنادت) فقدت بصرها نتيجة حادث أخرق .. لقد قامت بغلى حمض النتريك حاسبة أنه بول طفل ، والنتيجة هى انفجار أنبوب الاختبار فى وجهها ، وإصابة عينيها الجميلتين بتشوهات غير عادية فى القرنيتين ، وعاشت البائسة على أمل استرداد إبصارها ، لكن القرنيتين صارتا معتمتين كزجاج النوافذ المصنفر ، فلم يعد من حل أمامها سوى زرع القرنية ..

يجىء أبوها الثرى الكندى ليصطحبها إلى (كندا) حيث يجرى لها جراحة زرع القرنية ، ويعرف (علاء) أن الأب غير راض بتاتًا عن سلوك ابنته باعتبارها حمقاء تضيع جمالها وشبابها فى (إفريقيا) ، بينما الثراء ينتظرها فى (كندا) ..

وتغيب (برنادت) فترة طويلة عن (سافارى) ، فلا يعلم سوى الله (سبحانه وتعالى) كيف انقضت هذه الفترة على شابنا المتيم (علاء) الذى ظل طيلة الوقت يهاب احتمال ألا تعود (برنادت) ..

لكن (برنادت) تعود أخيرًا بعينين جديدتين ، فيدوّى السرور فى أرجاء (سافارى) لأن (برنادت) هى - بحق - حبّوبة الوحدة ..

هنا تبدأ أحداث غريبة بعض الشىء ..

هناك وجوه غير معتادة تلاحق (برنادت) فى كل مكان ، وتراها فى ظروف إضاءة معينة .. كل هذه الوجوه تصرخ وقد بدا عليها الذعر كأنما ترى الموت ذاته ..

ما معنى هذا ؟

إن (برنادت) توشك على الجنون التام ، وحتى

(بارتلييه) مدير الوحدة بدأ يرتاب فى سلامة عقلها .

ويجىء الحلَ فى صورة مجلة كندية خصصت بعض صفحات للحديث عن جرائم السفاح الكندى .. كانت صور الضحايا منشورة فى المجلة ، وأيقنت (برنادت) ـ فى هلع ـ أن هذه الوجوه هى ذاتها ما كان يلاحقها طيلةَ يومها .

إن النظرية المرعبة تتضح : إن القرنيتين اللتين تحملهما هما بالذات قرنيتا السفاح .. السفاح الذى مات فى ظروف لا يعرفها أحد .. وهاتان القرنيتان قد انطبعت عليهما للأبد صور ضحاياه لحظة موتهم ..

كل هذا عسير على الفهم .. كل هذا يتحدَى التصديق ..

لكن ما هو التفسير إذن ؟

انتهى الجزء الأول هنا .. وصار على الجزء الثانى أن يتولى مهمة التفسير هذه ..

وقد كان التفسير سهلاً جدًا .. فقط انظروا لليسار لتعرفوا كل شىء ..

* * *

١ ـ محاولة الفهم ..

كان الصمت يغلف الغرفةَ بعباءته الثقيلة ، صمت من الطراز الذى يدوّى فى الآذان ويصمَ الأسماع ..

(برنادت) ترمق البساط فى تركيز غريب ، وكأنها تشعر بالذنب ، وكأنها مسئولة بشكل ما عن معاناتها .. بينما البروفسور (بارتلييه) يدقَ بإصبعه السبابة على خشب مكتبه باحثًا عن شىء يُقال .. أما أنا فجلست جلستى الشهيرة التى يسميها (بسّام) بمزجر الكلب .. جلسة المتأهب للفرار لو حدث ما لا يريح ..

أخيرًا قال (بارتلييه) وقد رزقه اللّه (سبحانه وتعالى) ببضع كلمات :

ـ « هى نظرية عسيرة التصديق يا (علاء) .. لكنى لا أجد تفسيرًا آخر للأسف .. »

قلت وأنا أهزَ ساقى فى عصبية :

ـ « ولسوف تقلب الثوابت العلمية كلها .. »

ـ « لا شىء ينطبع على القرنية » ـ قالها وهو

يرمق (برنادت) فى شرود ـ « إنها مجرد نسيج شفاف .. تلك خرافة من خرافات الجدات لا أكثر ، ولو حدث شىء كهذا فالأجدر أن ينطبع على الشبكية .. فهى أقرب أجزاء العين البشرية إلى الفيلم الفوتوغرافى .. »

سألته فى شىء من التحدى :

ـ « لكن (برنادت) رأت صور الضحايا بوضوح تام .. »

ـ « هناك تفسير لم نعرفه بعد .. وهو التفسير الوحيد الذى سيقبله عقلى ومنطقى العلمى .. أما الآن ..... »

وابتلع ريقه فى ارتباك ، ثم أردف :

ـ « فلا أرى ما يمنع من اعتبار (برنادت) مريضة نفسيًا .. وإننى لأطلب منها رسميًا ألا تنقطع عن التردد على د. (جونستون) .. »

ونظر إلى الجدار معلنًا انتهاء المحادثة ..

* * *

غادرت و (برنادت) غرفة المدير ـ وكانت السابعة مساء طبعًا ـ صامتين كسمكتين .. وإن كنت أصارحك

بأننى سعيد بوضعى الجديد .. تدريجيًا صارت لى صفة شبه رسمية فيما يتعلق بـ (برنادت) كأننى وصىّ عليها ، أو كأننى المتحدث الرسمى باسمها .. وتعزز الأمر بشكل شبه رسمى حين طلب المدير أن أكون موجودًا فى أثناء مقابلته لها .. لقد التصقت بطاقتى بها وغدا من المستحيل انتزاعها ، ما لم يحطم أبوها رأسى أولاً .

الآن نحن فى الحديقة نشم رائحة الليل الإفريقى العطرة التى تعبق بألف زهرة ، وألف وحش يزأر فى الأدغال ، وألف عشب يحرقه ألف ساحر فى ألف قرية من قرى (البانتو) حتى القمر هنا له رائحة ..

سألتها :

ـ « هل ستعودين لحجرتك الآن ؟ »

ـ « بل أفضل المرور على عنابر الأطفال .. لِمَ لا تأتى معى ؟ »

ـ « الحق أننى لا أجد ما هو خير من هذا لأفعله .. »

وهذه هى المشكلة فى (سافارى) : إما أن يقتلك العمل وإما أن يقتلك الفراغ القاتل .. تعمل حتى

تصاب بنوبة قلبية ، ثم تجيء لحظات الراحة فلا تجد ما تعمله سوى النوم ، أو لعب الشطرنج ، أو كتابة الخطابات ، أو قطع شرايين معصمك ..

ودخلنا عنابر الأطفال فبدأت تمارس نوعًا من المرور غير الرسمى .. إنها فقط تتوقف عند هذا الفراش أو ذاك لتداعب المريض الصغير، أو تسأله عن حالة .. ملاك فى معطف أبيض يسرى بين المتعبين المعذبين ..

ولا أدرى لماذا تذكرتُ رائدة التمريض (فلورانس نايتنجيل) ، وكيف كان المرضى ـ جرحى حرب القرم ـ يلثمون ظلها على الأرض حين تمرّ جوار أسرتهم حاملة شمعتها .. كانوا يعتبرونها قديسة ..

توقفت عند فراش به طفل أسود ، له فك عملاق ، ذكرنى بصورة (حوت العنبر) فى الموسوعة التى كانت عندى فى (مصر) .. جسد نحيل أسود ، ووجه ضامر يخرج منه فك مهول الحجم ..

بالفرنسية التى لا يفهمها أحد هنا قالت وهى تداعب خدّ الصغير :

ـ « سرطان (بيركيت) اللمفاوى .. لعنة أطفال المناطق الحارة .. »

ـ « هل .. هل سيشفى ؟ »

ـ « إنه يتلقى جرعات من (الإندوكسان) .. النتائج غير مضمونة ، لكن لا بد من المحاولة .. »

ثم تصلبت للحظة ، وهمست :

ـ « إننى أراه الآن ! »

ـ « ترين سرطان (بيركيت) ؟! »

ـ « لا يا أحمق .. أرى الوجه ! الوجه الصارخ المتوسل الذى لا يصدّق أنه سيموت حالاً ! أراه بكل وضوح فى فضاء الغرفة .. »

وأخذت شهيقًا عميقًا كأنما ستفقد وعيها ..

سألتها مرتبكًا :

ـ « هـ .. هل هو من ضحايا القاتل ؟ »

ـ « لا أدرى .. إنه وجه لم أره من قبل .. لا أذكر كل الوجوه فى تلك المجلة .. لكن .. لكن .. »

وراحت شفتاها ترتجفان كاتمة صرخة مريعة ، وتصلبت أناملها على فك حوت العنبر الذى راح يرمقها فى دهشة .. بعد هنيهة همست وهى تتراجع للوراء :

ـ « (علاء) .. لا أستطيع الاستمرار .. سأ ..

سأعود لغرفتى لأنام ، ولو كنت محظوظة لن أصحو
من النوم غدًا .. »

* * *

مشكلة الوجوه الصارخة التى تتبدى فى هواء
الحجرة ، هى أنها لا تسمح لك بالاستمرار فى كونك
فردًا نشطًا فى المجتمع ..

* * *

تدريجيًا صارت حالة (برنادت) أسوأ بكثير ..
لا أدرى متى احتشدت التفاصيل لتخلق الصورة
النهائية ، لكننا صحونا ذات يوم كى ندرك الحقيقة ..
الفتاة التى تضحك دون سبب وهى تحدق فى الفراغ ،
أو تتصلب فجأة وتنفجر صارخة ، أو تبكى فى أثناء
محادثة عادية .. رباه ! لشدّ ما تغيرت !

إن ملامحها لم تتبدل ، لكنها صارت قبيحة مدعاة
للرثاء .. وهذا هو ما كان الشعراء يقولونه ولا نصدقه :
الجمال جمال الروح .. كانت روحها الطلقة الجذابة تطلّ
من عينيها فتجعلها لا تُقاوم ، وحين شاخت هذه الروح
وجرحت صارت (برنادت) أقل جمالاً .. هذا غريب ..
ما زال الأنف أنفها والفم فمها .. لكنها لم تعد هى ..

وفى ذلك اليوم كانت فى عيادة الأطفال تفحص طفلاً
مريضًا بسوء التغذية ـ وكل الأطفال هنا مرضى
بسوء التغذية ـ حين طلبت من الأم أن تزيل المخاط
المتدلى من أنفه ..

طبعًا لم تفهم الأم حرفًا من الفرنسية ، ولم يكن
مترجمنا المعتمد موجودًا .. لذا ظلت ترمق (برنادت)
فى بلاهة كبلاهة الخرتيت ..

كررت (برنادت) طلبها فى عصبية أكبر ، وقد
راحت يدها اليسرى ترتجف رجفة لا تستطيع التحكم
فيها ..

الأم ما زالت تؤدى دور الخرتيت ببراعة تامة ..

هنا انفجرت (برنادت) صارخة فيها ، كمن ماتت
أسرتها كلها فى حادث أليم :

ـ « أيتها الحمقاء ! افهمينى مرة واحدة ! »

ولم يكن هذا كل شىء .. لقد نهضت فى هستيريا
وصفعت المرأة ـ لم يحمرّ وجه الأخيرة لحسن الحظ
بسبب لون بشرتها ـ ثم راحت توسع المكتب ركلاً ..
ووجهت ثلاث لكمات خطافية للباب ، ثم إنها رفعت
ميزان الأطفال فهشمت به الواجهة الزجاجية لعيادة



ثم ـ كالمسعورين ـ راحت تهشم وتحطم وتجذب وتقذف كل ما فى متناول يدها بالغرفة ..

الأطفال ، كل هذا وهى تطلق شتائم فرنسية راقية وجدتها فيما بعد فى الجزء الخاص بلغة الرعاع فى معجم (لاروس) الفرنسى .

ثم ـ كالمسعورين ـ راحت تهشم وتحطم وتجذب وتقذف كل ما فى متناول يدها بالغرفة .. وكنا قد لحقنا بها حاسبين أن غوريللا قد تسللت من الدغل إلى عيادة الأطفال ، فوجدنا هذا المشهد المؤسف ..

صفعة تنهى الأمر .. هكذا يحدث دائمًا فى السينما .. لكنى لم أجد فى نفسى الشجاعة الكافية لأفعلها ، فوقفت فى بلاهة أردد عبارات على غرار :

لا تفعلى هذا .. اهدئى ! فلنتكلم أولاً !

لكن (بسام) صديقى التونسى ، وجد الشجاعة الكافية ليصفعها صفعتين أو ثلاثًا .. وكان هذا كافيًا لينفجر شلال الدموع لديها ، ويرتخى جسدها كدمية (ماريونيت) انقطعت خيوطها .

راحت تنشج ودفنت رأسها فى صدره لتمسح مخاط أنفها فى صدر قميصه ، ومن الغريب أننى حسدته على هذا !

انتهى المشهد القاسى الغريب الذى يمكن أن

تعرضه فى مُتحف ، وتضع تحته عبارة واحدة :
الانهيار العصبى ..

لقد حولت (برنادت) الغرفة إلى متجر خزف اقتحمه ثور هائج .. ومن الواضح تمامًا ما سيفعله المدير حين يرى المشهد .

* * *

ـ « هى لم تترك لى الخيار .. »

قالها وهو يمهر عشرات الأوراق بتوقيعه ، وأثار هذا دهشتى .. كنت أظن الفصل من العمل لا يحتاج إلا لكلمة واحدة : مفصول .

ـ « لكنها يا سيدى مريضة .. »

ـ « لهذا لم أفصلها .. لقد منحتها إجازة مفتوحة للعلاج .. »

ـ « وكيف تضمـ .. ؟ »

ـ « كيف أضمن ؟ حين تعود لى بشهادة موقعة معتمدة من مختصٍ بالمرض النفسى يقول لى إنها على ما يُرام ، عندئذ سأرحب بها .. »

ـ « إذن هى عائدة إلى (كندا) ؟ »

ـ « تلك مشكلتها .. ولو أرادت استكشاف منابع النيل فهذا شأنها .. »

ثم احمرّ وجهه ونظر لى محنقًا :

ـ « وما زلت لا أفهم ما شأنك أنت أيها الشاب .. أنت لست مستشارًا لى هنا .. وإننى لأمقت أن أراك هكذا دون عمل ! »

معه حق .. يبدو أننى قد تجاوزت حدودى نوعًا فى الآونة الأخيرة .

* * *

٢ - والمزيد من محاولة الفهم ..

وحدى من جديد ..

نعم وحدى .. فالمرء لا يكون وحيدًا إلا حين يقرر أنه وحيد .. عندى (بسام) التونسى .. الوحيد الذى يفهم دعاباتى ويصغى للأغانى التى أصغى إليها ، وعندى (آرثر شيلبى) العالم الخبيث لكنه - برغم هذا - عالم ، وعندى (بودرجا) بكلامه الذى لا ينقطع عن السحر والأرواح ، وعندى (إبراهام ليفى) لأمقته ، وعندى (جيديون) لأستفيد من كل حرف يقول برغم أننى لا أطيقه .. كل هؤلاء حولى ومعى .. لكنى وحيد ..

لماذا ؟ لأننى قررت أننى وحيد .

تبًا لكم ولوجوهكم الكالحة .. ما قيمة (سافارى) بدون (برنادت) ؟

★ ★ ★

كان مذاق المرارة يغمر فمى ، واعتقدت أن أتناول قرصًا منومًا أو اثنين قبل النوم فقط لأنسى وجه

(برنادت) الصارخ المذعور ، ونوبة هياجها غير المعتادة .. إن رؤية الوقورين يفقدون وقارهم لمشهد قاس حقًا ..

ثم قاومت هذه العادة كى لا أعود لـ (مصر) مدمنا ، يبحث عمن يبيع له (البرشام) فى زقاق مظلم فى ليلة سوداء ..

وفى تلك الليلة كنت وحدى فى غرفتى ، أزجى الوقت بكتابة خطاب لأمى وأنا - كالعادة - أتشكك فى أن تقرأ هذا الخطاب حيَة .. فلا يزول الشك إلا حين يصلنى خطابها بخطها المتعرج الطفولى ، هى التى تركت الدراسة منذ المدرسة الابتدائية .. وكان هذا هو أجمل خطٍ فى نظرى ..

كنت - أقول - منهمكًا فى كتابة الخطاب ، محاولاً أن أنقى الحروف من السوداوية ، ومزاجى المتعكر الذى لو سقطت منه قطرة فى المحيط لأفسدت على الناس معاشهم ؛ حين دق الباب ثلاث دقات ..

هذه يد (بسّام) .. فصحت بالعربية أدعوه للدخول..

كان منهكا بعد يوم شاق ، فخلع نعليه وجلس متربعًا على فراشى .. وسألنى عن حالى ، وعن الشاى ، وعن جهاز التسجيل ..

كانت إجابتى هى أننى كما ترى ، ووضعت البرّاد على الموقد الكهربى ، وضغطت زرّ جهاز التسجيل ليدوّى صوت (فيروز) التى تنهى الناس عن سؤالها عن اسم حبيبها .. وإلا ـ على ما أذكر ـ تكدّس الليلاك فى الدروب ..

ـ « تكتب خطابًا للعزّوزة ؟ »

و (العزوزة) ـ كما عرفت من زمن ـ هى الأم بالتونسية العامية ..

ـ « نعم .. هكذا أفعل مرتين أسبوعيًا .. »

ـ « ألم تكتب لـ (برنادت) ؟ »

تنهّدت ، وصببت الشاى فى كوبين مصغيًا لرنين الزجاج البارد إذ يحترق بالسائل الساخن ، وقلت :

ـ « بلى كتبت .. لكنها لم تردّ بعد ، وأتصوّر أن فرنسيتى الرديئة جدًا كتابةً هى السبب .. »

ـ « أنت تفتقدها .. أليس كذلك ؟ »

وهى طريقة (بسّام) الدائمة .. لقد سألنى السؤال ذاته مليون مرة ، وكلما افتقد موضوعًا للكلام . وهو يعرف الإجابة جيدًا ، لهذا هززت رأسى ، بمعنى أننى لا أرغب فى الكلام فى هذا الموضوع .. فهذا لن يضيف جديدًا ..

عاد يسألنى :

ـ « هل وصلت لاستنتاج ما بصدد ما حدث ؟ »

ـ « طبعًا .. كل هذا يتعلق بأبيها ! »

بدا عليه عدم الفهم ، وكرّر السؤال .

ـ « أبيها ؟! »

ـ « نعم .. الرجل هو المسئول عن كل هذا .. »

★ ★ ★

قلت له :

ـ « الأمر واضح تمامًا .. لقد بدأ كل شىء منذ عادت إلى (كندا) .. ومعلوماتى هى أن أباها ليس لطيف المعشر . ليس بالرجل الذى يمكن أن تهيم حبًّا به .. ومعلوماتى كذلك أن أباها يمقت عمل ابنته ، ويمقت (سافارى) ، وبالطبع يمقتنا جميعًا ..

« معلوماتى ـ إلى جانب هذا كله ـ تقول إن ثراء الرجل لفاحش ، وإنه لقادر على الحصول على ما يريد وبأى ثمن .. »

« يمكن أن نقول ها هنا إن الرجل لم يطق للحظة فكرة تمرد ابنته على سلطته والخط الذى رسمه لها .. فما الكيفية التى بها تقنع ابنةً كهذه بالعودة إلى أحضان أبيها ، والرضوخ لما يريد ؟ »

« ثمة طريقة مؤكدة هى إثارة رعبها .. هى إفساد حياتها إلى الدرجة التى تفرّ منها نحو أحضان الأب المفتوحة الجاهزة ، وخارطته التى رسم لها فيها كل شىء ستأكله أو تشربه أو تؤديه أو تحبه لمدة ثلاثين عامًا تبدأ من هذه اللحظة .. »

« لقد حدث شىء ما شرير لـ (برنادت) فى (كندا) .. وهذا الشىء هو سبب ما أصابها ، ويمكننى أن أرجح أن لأبيها دورًا ما فى كل هذا .. والنتيجة هى أنها بالفعل قد عادت له .. وثمة احتمال لا بأس به أننا لن نراها مرة أخرى .. »

ضرب (بسّام) بكفه المفتوحة على جبهته ، فلم أدر أهذا عدم تصديق أم دهشة ، وقال :

ـ « آى آى ! تعنى أن أباها اختار لها قرنيتى قاتل عمدًا ؟ »

ـ « لم أقل هذا .. قلت إنه أخضعها لمعاملة تجعلها تتخيل هذا ! »

ـ « وما هى هذه المعاملة ؟ »

ـ « لو كنت أعرف لغدا كلامى أكثر تحديدًا

ووضوحًا ، بدلاً من استعمال هذه المصطلحات العائمة : (شىء ما) ـ (دور ما) ـ (أرجح) .. »

ضحك (بسّام) وقال وهو يدسّ قدميه فى حذائه :

ـ « هراء ! الأب لا يعرض ابنته للجنون كى تعود إليه .. »

ـ « هذا الأب يفعلها .. »

قلتها وأنا لم أنس معاملته الجافة لى وللحاجة حين ذهبنا إليه بعلبة الشيكولاتة نطلب يد ابنته .. لقد حدث هذا فى خيالى لكنه جعلنى أحمل اشمئزازًا عميقًا حقيقيًا نحو الرجل ..

قال (بسّام) وهو يفرد يديه متثائبًا :

ـ « حسن.. كل هذا جميل.. شكرًا على الشاى.. »

وضغط على زرّ إخراج الشريط من الكاسيت معلنًا أنه يريد هذا الشريط الليلة ، ودسه فى جيبه ثم تمنى لى ليلة طيبة وانصرف ..

مجنون.. أنا مجنون.. هكذا يظن ولا ألومه كثيرًا..

★ ★ ★

والنصيحة الوحيدة للمكتئبين هى : لا تكن وحيدًا .. لا تكن عاطلاً ..

وأنا وحيد لكنى لست عاطلاً .. لهذا أغرقت نفسى حتى النخاع فى العمل وبدأ حالى يتحسن كلما ازداد المرضى تدهورًا .. إن الملاريا مرض مدمّر للمريض لكنه مفيد لنفسية الطبيب دون شك ..

ثم وصل إلى (سافارى) أول خطاب من (برنادت) ، وكان موجهًا لى ..

كنت فى طريقى إلى المعمل حيث تنتظرنى (هلجا) الألمانية المفترسة لتلتهمنى على الإفطار ؛ حين وجدت اسمى على لائحة الخطابات التى أمرّ بها كل يوم ملهوفًا .. وقّعت واستلمت الخطاب ، ثم هرعت إلى غرفتى لأقرأه .. إن (هلجا) يمكن أن تظل جائعة عشر دقائق أخرى ..

« عزيزى علاء .. »

« أعرف أنك ستقدر أسباب تأخرى فى الردّ عليك برغم الخطابات الثلاثة الرقيقة ـ المكتوبة بأسوأ فرنسية ممكنة ـ التى أرسلتها لى .. »

« لم أكن على ما يُرام ، ولست أنا من الطراز الذى يكتب خطابًا مقتضبًا يقول إن كل شىء لا بأس به .. كنت بحاجة إلى السعة النفسية كى أكتب خطابًا دسمًا

محترمًا لك ، واقتضى هذا بعض الوقت حتى أتيح لى .. »

« إن الرؤى لم تنقطع عنى لحظة .. أحيانًا كنت أراها مرة أو مرتين فى اليوم ، وأحيانًا عشر مرات .. لكن لم يمر يوم بى دون أن أرى وجهًا من تلك الوجوه الصارخة المستجيرة .. »

« أثبت فحص القرنيتين أن كل شىء على ما يُرام، والجراحة تمت ببراعة ولم يعد من أثر لما حدث لى ، كما أن قاع العينين بحالة طيبة .. لهذا ضلت سفينتى طويلاً ، لكنها ـ كالعادة ـ رست عند مرفأ الإرهاق النفسى .. ولم يكن لدى كل هؤلاء الأطباء سوى أقراص (الفاليوم) ومضادات الاكتئاب ثلاثية الحلقات..»

« (علاء) .. لو رأيتنى لأصابك الهلع من منظرى.. إننى أشبه أولئك الموتى الخارجين من قبورهم فى أفلام الرعب ، وقد امتلأ وجهى بالأوردة الزرقاء والهالات السوداء والعيون الدامية .. مزيج جميل جدًا من الأزرق والأسود والأحمر .. »

« أقضى الوقت فى النزهة حول (أونتاريو) .. أحيانًا أركب قاربًا وأبحر حتى وسط البحيرة لأشعر بأننى وحدى، عندها يزورنى وجه أو اثنان ، ينطبعان

على صفحة الماء أو على السماء .. لكنى لا أخشى اتهامات الجنون وقتها .. فأطوح بقبضتى وأصرخ وألعنهما ثم انفجر بالبكاء كسحابة مثقلة استنفدت أغراضها .. »

« لا أخبار عن سفاحنا العزيز .. لقد توقفت سلسلة جرائمه تمامًا ، وهذا متوقع .. أنا الوحيدة الواثقة من ذلك ؛ لم لا وأنا أحمل عينيه ؟ لقد مات الرجل .. لكنه ترك لى هدية ثمينة .. »

« (علاء) .. هل قرأت (أوديب) لـ (سوفوكليس) ؟ إن تلك المسرحية تثير اهتمامى بشدة هذه الأيام !

بإخلاص : (برنادت)

* * *

كالمجنون أمسكت بالقلم ، وبدأت أكتب ردى على خطابها :

- « عزيزتى (برنادت) .. »

« (أوديب) قد فقأ عينيه بدبوس شعر أمه ليعاقب نفسه .. فيم تفكرين بالضبط يا (برنادت) ؟!

* * *

٣ - الرجل الذى لم يحب (باخ) ..

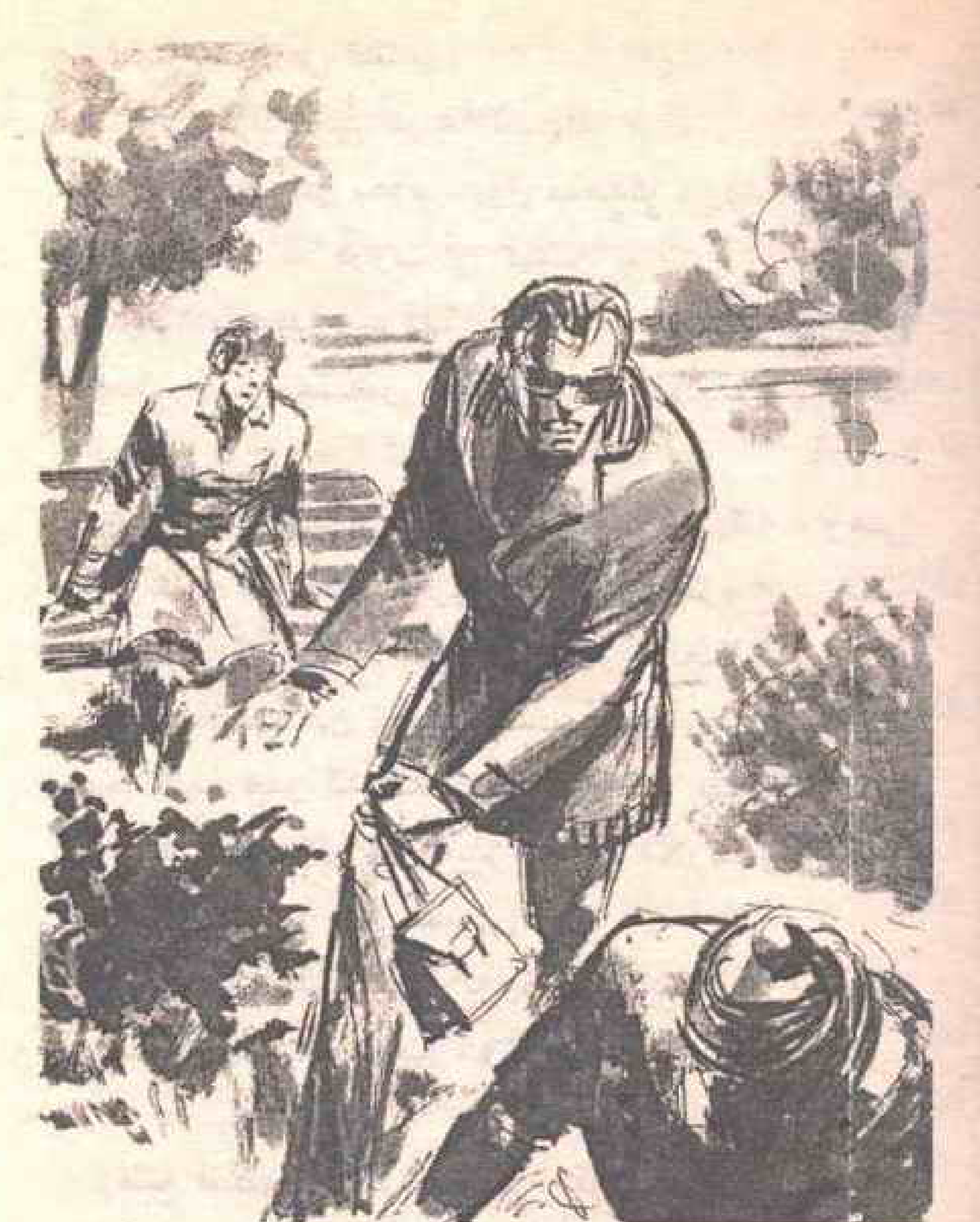
كثيرون لا يحبون (فاجنر) .. البعض يرى (ليست) مملاً .. ثمة خلاف دائم حول (موتسارت) .. لكن من العسير أن يجد المرء من لا يحب (باخ) .. ولهذا كان (نورمان) مختلفًا ..

* * *

كعادتها ذهبت إلى الحديقة العامة ، وراحت تتسلى بإطعام الحمام .. الكائنات اللطيفة البيضاء تلتقط الحبَ من يديها - بفتح الحاء وضمها معًا - دون تهيب ولا وجل ..

بضع دقائق مرت فى هذا السلام النفسى ، ثم رفرف الحمام فى رعب ، فاللصوص لا يملكون روحًا رقيقة ، خاصة لصوص الحقائب ..

كان شابًا يرتدى سترة جلدية وقلنسوة صوفية ، ويهرول حاملاً حقيبتها التى كانت تعلقها على ظهر المقعد ، وأدركت من سرعته أن اللحاق به مستحيل ..



لكنه وجه ركلتين إلى ضلوع المعتدى ، ثم انتزع الحقيبة من يده ، وعاد بها إليها ..

هنا ظهر (نورمان) .. لم يبد عليه أنه لا يحبَ (باخ)، لكنه بالتأكيد لم يحبَ اللصوص قط .. ظهر من مكان ما فى طريق الفتى الهارب ، ومدَ ساقه اليسرى فطار المعتدى فى الهواء ثم سقط على الأرض ..

لم يكن (نورمان) عملاقًا ، ولم يبدُ بعد من هواة الشجار ، لكنه وجه ركلتين إلى ضلوع المعتدى ثم انتزع الحقيبة من يده ، وعاد بها إليها ..

ـ « إنه .. يهرب ! »

قالتها وهى ترى الفتى ينهض مترنحًا ثم يطلق ساقيه للريح ..

قال (نورمان) دون أن ينظر للوراء :

ـ « دعيه .. لا أعتقد أنه يحمل سلاحًا لكن المجازفةَ خطرة .. هو الآن يشعر بالخطر ، ولربما دفعه هذا إلى الضغط على زنبرك مطواته لو حاولنا اعتراضه .. لقد عاد لك ما كان ملكك.. وهذا كاف..»

وابتسم ابتسامةً رقيقة ..

لم يكن وسيمًا لكنه ذو وجه مريح .. له نظرة مُرهقة تذكرك بنظرة طبيب أو محام أو مدرس .. نظرة رزينة هادئة ..

ابتسمت له فى امتنان :

ـ « أشكرك على سرعة تصرفك .. »

ـ « رأيته وهو يحوم حول مقعدك ، وبدا لى أنه ينتوى شيئًا ، لذا قررت أن أفاجئه .. »

عرفته بنفسها وعرفها بنفسه .. اسمه (نورمان كريستى) .. مهندس معمارى .. ولم يقل لها إنه لا يحبَ (باخ) هذا شىء عرفته فيما بعد ..

عرفت أنه متزوج ولا يعيش مع زوجته ، وهى سمة عامة فى العالم الغربى .. الكل متزوج .. الكل منفصل .. إن الأسرة كيان أسطورى كالعنقاء ..

كانت خارجة من تجربة نفسية رهيبة ، وكانت قد نسيت كيف تبدو المدينة .. بالنسبة لها صار عسيرًا أن تتعامل مع مكان بلا أحراش ولا ملاريا ولا قبائل أقزام ولا ذباب (تسى تسى) ..

لهذا مدّت يدها له كى يعاونها على اجتياز أحراش المدينة إن صحَ هذا التعبير، وكان (نورمان) لطيفًا حقًا..

★ ★ ★

وضع أسطوانة على جهاز الفونوغراف العتيق ، وابتسم :

ـ « الموسيقا الكلاسية لا تُسمع إلا من فونوغراف.. هذا هو رأيى الخاصّ .. إن جهاز التسجيل يفسد كل شىء .. »

ثم تأمل بعض المغلفات التى تحمل صورة الكلب المقعى جوار الفونوغراف يصغى لـ (صوت سيّدهِ) ، وسألها :

ـ « هل تحبين (برامز) ؟ »

ـ « لا أدرى .. لا أحب الموسيقا الكلاسية عامة .. ربما كان (باخ) ..... »

ـ «لا .. لا» ـ قالها فى اشمئزاز ـ «.. إلا (باخ) .. أنا أكرهه .. »

ابتلعت ريقها عاجزة عن إيجاد أسباب تجعل حبَّ (باخ) ضرورة إنسانية ، ثم هزّت رأسها باعتبار الأمر ليس بهذه الخطورة ..

دوّت موسيقا (برامز) فى الغرفة المغلقة الدافئة ، على حين جلس جوارها على الأريكة وتناول قدح الشيكولاتة الساخن ، ورشف رشفة ..

سألها :

ـ « هل أنت مرتبطة بأحد هناك ؟ »

فكّرت قليلاً ثم غمغمت :

ـ « كثيرون من الكنديين يخطبون ودّى .. لكن هناك واحدًا يهتم بى بصفة خاصة .. »

ـ « أمريكى ؟ »

ـ « لا .. إنه عربى .. مصرى .. »

ـ « آها .. الفارس القادم من الليالى العربية ملثمًا فوق حصان أبيض ! ليس السؤال عمن يحبك ، بل عمن تحبين أنت ؟ »

ـ « ليس الأمر بهذه السهولة .. إنه يسكب عواطفه واهتمامه بحرارة ، حتى لم يترك لى فرصة للتفكير فى شىء .. أحيانًا أحسبنى أميل إليه ، لكننى غير متأكدة .. لو أحبَّ المرء كل من يعامله باهتمام ورقة لما صار لديه وقت لشىء آخر ! »

ابتسم لتعبيرها ، ووضع القدح جانبًا ليسألها :

ـ « هل تميلين إلىَّ لأننى أعاملك باهتمام ورقة؟ »

ـ « حقًا لا أدرى.. إننى أشعر براحة لكونى معك، ولا أريد شيئًا آخر .. ولا أبغى تعميق العلاقة عن هذا .. »

ـ « وما المانع ؟ »

ـ « تعميق العلاقة يعنى ـ ببساطة ـ أن تخون زوجتك وهذا مرفوض ، أو أن تتزوج ، وهذا معناه الصدام المحتوم مع أبى .. »

هو لن يروق لأبيها .. هى تعرف هذا جيدًا .. مستحيل أن يروق لأبيها .. وحتى لو راق له فلن يعلن أبوها هذا ، ما دام قد جاء عن طريقها هى ..

قال لها فى خيبة أمل :

ـ « ظننتك تحرّرت من قيود أبيك .. »

ـ « فى وقت آخر .. ربما .. أما الآن فأنا هشّة .. هشّة كرضيع .. »

وعضت شفتها السفلى كى لا تبكى ..

★ ★ ★

نعم هى هشّة ..

وربما لأنها هشّة اعتادت أن تقابل (نورمان) فى كل أمسية .. يتناولان العشاء معًا ويتنزهان ، لقد صار مهمًا جدًا فى حياتها ، ولربما أدركت أنها مهمة كذلك فى حياته ..

وصار مفتاح شقته معها.. تفتحها ، وتجول فيها ، وتستعير كتبه أو تراجع أوراقه .. أو تلتهم الطعام من ثلاجته ..

وعدها بأن يطلق زوجته ـ فهما شبه مطلقين الآن ـ ويتزوجها ، لكنها لم تكن على استعداد لسماع شىء من هذا ..

ـ « إن ما بيننا صداقة وستظل ، حتى أكفَ عن اعتبارها كذلك ! »

ـ « المشكلة هى أن الوقت لا يسمح بأن تكفى أو لا تكفى .. فهمت أنك ستسافرين قريبًا جدًّا .. »

ـ « تلك مشكلة أخرى .. إن حياتى كلها هناك فى (أنجاوانديرى) .. لقد أرسلت (برنادت) الحقيقية جسدها إلى (كندا) لإجراء جراحة . لكنها ظلت هناك بروحها وعواطفها .. ترى هل تقبل أن تترك كل شىء لتجىء معى إلى (الكاميرون) ؟ »

ـ « بل وإلى (تمبكتو) لو أردتِ .. »

كان يحبها حقًا ..

أشياء كهذه لا تفوت المرأة ولا تنخدع فيها ..

★ ★ ★

على أن الفضول قد يدفع المرء دفعًا إلى الحماقة..

لماذا يا (نورمان) تركت المفاتيح فى درج مكتبك ؟

إنها تتذكر هذه اللحظة الآن بكثير من العسر ..

كان هو فى المطبخ يعدّ عشاءً مكونًا من المكرونة وشرائح اللحم ، وراحت هى تجوّل فى الشقة ، ثم قرّرت أن تدخل مكتبه لتنتقى كتابًا تستعيره الليلة ، حين تعود إلى دارها ..

صوت الموسيقا يتردّد من جهاز (الفونوغراف) ، وسيمفونية (موتسارت) لا تذكر رقمها ولا اسمها .. من العسير أن يسمع المرء (باخ) فى هذا البيت الذى لا يحبّ صاحبه (باخ) قط ..

راحت تبحث وسط العناوين ، حين وجدت المفاتيح معلقة من الساسلة التى تتدلى بدورها من الدرج الرئيسى للمكتب .. الدرج الذى لم تره إلا موصدًا ..

ولماذا يا (نورمان) تركت المفاتيح فى درج مكتبك ؟

هى فتاة مهذبة لا تتدخل فيما لا يعنيها .. لكن لكل جواد عثرة ولكل عالم هفوة ، و (حتى هومير يحنى رأسه) كما يقول (علاء) دومًا ..

إن الدعوة قوية شديدة الإغراء .. فدرج هذا الرجل هو ضميره .. واختلاس نظرة إلى محتواه يشبه اختلاس نظرة إلى مكنون صدره ..

ترددت قليلاً .. امتدت يدها إلى الدرج ثم عادت إلى جانبها ..

صوته قادم من المطبخ .. ماذا يقول ؟ يقول :

ـ « أما زلت رافضة للجبن المبشور على المكرونة ؟ »

ـ « بلى .. »

ـ « ماذا قلت ؟ »

ـ « بلى ى ى ى ى ! »

قالتها بصوت أعلى .. ثم أخذت شهيقًا قويًا ومدت يدها تدير المفتاح فى ثقبه .. وجذبت المقبض ..

انفتح الدرج ..

ولماذا يا (نورمان) تركت المفاتيح فى درج مكتبك ؟

* * *

للدرج رائحة غريبة .. رائحة رجل لم يحبّ (باخ) قط ..

كانت هناك ملفات ملأى بالأوراق .. مستندات .. أسهم قديمة .. عقود ..

ثم كانت هناك مفكرة سميكة .. فرت أوراقها

سريعًا ، فلم تجد إلا رموزًا لا يفهمها إلا صاحبها على غرار (هـ + ك اليوم) .. (آرثر .. الموعد) .. إلخ .. ولم تجد اسمها قط ..

صوت (موتسارت) ـ أو ألحانه ـ يتردد فى سماء الغرفة .

كان هناك ملفٌ يرقد تحت الملفات كلها ، وكان مليئًا بقصاصات من الصحف .. فى حذر أخرجته وفتحته ..

كلها قصاصات من صفحات الحوادث فى عدة جرائد .. كلها تحكى أخبارًا عن السفاح الذى أثار الهلع فى قلوب الكنديين .. صور لضحاياه يضحكون فى وجه الكاميرا يومًا ما وكانوا لا يعرفون مصير ضحكتهم هذه .. وفى الأغلب كانت هناك صور لجثثهم كما وجدها رجال الشرطة .....

غريب هذا ! ما سرّ اهتمام (نورمان) بهذا الموضوع ؟

* * *

صورة سيدة فى الخمسين من عمرها .. لا بد أنها أمه .. وصورة امرأة قاسية الملامح فى الثلاثين من عمرها .. لا بد أنها زوجته لو كان متزوجًا حقًا .

مدّت يدها إلى ما هو أكثر عمقًا فى الدرج ..

كانت هناك صورة .. صورة تم تكبيرها ، والطباعة النقطية الخشنة تقول إنها أصلاً منتزعة من جريدة .. الصورة مرسومة بخطوط فظة حادة لوجه رجل .. رجل لا يبدو خطرًا إلى هذا الحدّ .. يمكن أن يكون طبيبًا أو مهندسًا أو محاميًا ، والطابع العام للصورة يذكرنا بأسلوب رسامى الشرطة فى تكوين وجه المجرم من وصف ضحاياه ..

وهنا تذكّرت .. هذه هى الصورة الوحيدة المعروفة للسفاح الكندى .. لقد عاشت واحدة من ضحاياه حتى تمكنت من وصفه لرجال الشرطة ..

صوت (نورمان) يدوّى من المطبخ :

ـ « هل تريدين شرائح اللحم نيئة قليلاً ؟ »

ـ « بل ناضجة تمامًا .. »

ـ « ماذا تقولين ؟ »

ـ « ناضجة تمامًا أ أ أ أ .. »

لماذا يهتم (نورمان) بهذه الأشياء ؟

إن الصورة تذكرها بشخص ما .. لا .. ليس هو (نورمان) .. إلا فى حالة واحدة .. لو أنها حاولت

وصف (نورمان) لرسام شرطة ، فلن يزيد وصفها عن هذه الصورة .. حقًا هى لا تشبهه لكنها تنتمى إليه بشكل ما .. مثلما يمكن تقسيم الرجال إلى قوائم عامة متعسفة : رجال ملتحون ـ رجال ذوو عوينات ـ رجال لهم شوارب ـ رجال لا يميزهم شىء .. وكان (نورمان) ينتمى إلى نفس القائمة التى ينتمى لها صاحب الوجه المنشور ..

وتقلصت جذور شعرها رعبًا ..

(نورمان) يشبه السفاح ، ويحتفظ بكل خبر نشر عن السفاح .. فما معنى هذا حقًا ؟

(موتسارت) ما زال يواصل مهمته الخالدة ..

عليها ألا تتوتر .. ألا تجزع ..

فى هدوء ستغلق الدرج ، ثم تتراجع خارجة من الغرفة ومعها كتاب .. وتتناول العشاء كأن شيئًا لم يكن ، ثم تعود لدارها وتقرر ما يجب عمله .

لكن لا .. من العسير أن ترى وجه (نورمان) فى هذه اللحظة بالذات .. إنها مذعورة ، ولسوف يستنتج هو الكثير من وجهها ..

ثم ـ بالله عليك ـ كيف تعرف أن هذه ليست الليلة

المختارة ؟ ربما كان الأمر كذلك .. وعندها يكون العشاء مسمومًا أو يحوى مخدرًا ما .. ولن تعرف إلا بعد فوات الأوان ..

الهرب الآن ..

الهرب الذى يبدو هربًا ..

كقطعة مذعورة ستهرع إلى الباب لتفتحه ، وتسابق الريح ..

لن يلحق بها .. سيحتاج إلى وقت للفهم وستكون هى فى أول سيارة أجرة على بعد خمسة أو عشرة أميال من هذا المكان ..

سوف .....

وهنا ـ قبل أن تغلق الدرج وتوارى الأوراق ـ سمعت صوته قادمًا من خارج الحجرة .. ربما على بابها .. ربما من داخلها الآن ..

ـ « هيه .. (برنادت) ! ألن تفرغى من هذا البحث المحموم ؟! »

★ ★ ★

٤ ـ سائقة سيئة حقًا ..

انتهت السيدة (لندا مكورميك) من إجراءات صرف الشيك ، ثم تراجعت لتسمح للواقفين وراءها بالوقوف فى الطابور .

امرأة فى الخمسين من عمرها هى .. أرملة .. ما زالت تحمل بعض جمال ذابل ، يذكرك بصورة بالأبيض والأسود لملكة جمال من الأربعينات ..

غادرت المصرف واتجهت إلى سيارتها الصغيرة الواقفة أمام البناية ، لم يتوقف عدّاد الانتظار بعد لحسن الحظ ، ولم تجد الورقة العتيدة على زجاج السيارة الأمامى تخبرها أنها مخالِفة ، وأن غرامة تنتظرها .

فتحت الباب وألقت بنفسها إلقاءً فى مقعد السائق .. إنها سائقة سيئة حقًا ، وهى تعرف ذلك جيدًا ، لكنها تتظاهر بالعكس ..

ومن العسير أن تخرج من هذا الموضع الضيق إلا لو تراجعت فحطمت الفانوس الأمامى للعربة التى

وراءها ، أو تقدمت فهشمت مؤخرة العربة التى أمامها .. دعك من تحطيم موضعين أو أكثر من سيارتها ..

أخذت شهيقًا عميقًا وحركت عصا السرعات إلى موضع التقهقر ، وبحذر داست على دوّاسة الوقود .. و .. هوب !

وكما يحدث فى كل مرة اتضح أن السيارة الحمقاء لا تنوى التقهقر بل تنوى الوثب للأمام !

صوت الـ (كراش !) يخبرها أن شيئًا ما خطأ .. يبدو أن السيارة (الفولكس) الزرقاء التى أمامها قد فقدت شيئًا من بريقها السابق ..

أعادت تثبيت ذراع السرعات للتقهقر .. ومن جديد داست ؛ وفى هذه المرة كانت الحركة للوراء لكنها كانت أسرع من اللازم .. وثبة جميلة جدًا . وسرعان ما دوّى صوت الـ (كراش !) من جديد .. ولا بد أن زجاجًا مهشمًا كثيرًا يكسو الأسفلت الآن ..

- « يا للجحيم ! »

لم تكن السيدة (مكورميك) المهذبة ممن يسبّون .. لكنها - فى هذه اللحظة بالذات - فكّرت فى أنه من المريح استعمال لغة فظّة من حين لآخر ..

وأدارت المقود بأقصى طاقتها .. ثم حركت عصا السرعات للأمام وحاولت الخروج من جديد ، وهنا كان صوت الارتطام خاصًا بمعدن السيارة نفسه وليس مصابيحها .. (كرانج !) وليس (كراش !) كما اعتادت .

كانت على وشك البكاء .. لا سبيل للخروج من هذا الموقف المقيت .. لكنها - حين أوشكت على مغادرة السيارة - سمعت من يقول لها :

- « بدلى مقعدك ، وسأحاول تخليصك من هذه الورطة .. »

* * *

كانت السيارة (مكورميك) فى أسوأ حال ، ولم تحاول لحظة .. كانت فى أمسّ حاجة إلى من يؤدى دور الأم التى تعرف كل شىء لها ..

غادرت مقعدها ودارت حول السيارة ، على حين جلست الشقراء ذات المنظار الأسود فى مقعد القيادة ، وانتظرت حتى تنحّت السيدة (مكورميك) مسافة كافية ، ثم - ببراعة لا تصدَّق - حرّرت السيارة من موضعها .. حتى سمعت الأخيرة صوت السيارة تتنهد ارتياحًا لخلاصها ..

انتظرت (مكورميك) أن تترجل الفتاة ، لكنها فتحت الباب الجانبى لها وصاحت بصوت رقيق حازم :

- « بحق السماء ، اركبى حالاً ! »

وثبت السيدة فى المقعد الجانبى ، وسرعان ما انطلقت السيارة مبتعدة ، وقالت الفتاة للسيدة :

- « يحسن الابتعاد السريع عن أشياء كهذه ، وإلا وجدت نفسك فى مشاكل لا حصر لها مع صاحبى السيارتين ! »

غمغمت السيدة (مكورميك) شيئًا عن تحمل المسئولية وضرورة الاعتراف بالخطأ ، ثم صمتت .. الحق أنها كانت ضعيفة جدًا فى لحظة كهذه .. ولم تجد فى نفسها أية قوة لمواجهة الموقف أو الانتظار حتى يصل صاحبا السيارتين .. الهرب هو ما تستطيعه الآن ..

قالت للفتاة وقد هدأت قليلاً :

- « أنت بارعة حقًا .. ولكنى أبعدتك عن سيارتك كثيرًا .. »

- « أنا لا أملك سيارة ، لهذا سأجعلك توصلينى إلى وجهتى .. »

صمتت السيدة قليلاً ، ثم قالت :

- « شكرًا على ما تجشمته من عناء .. »

- « لا عليك .. كلنا ذلك الرجل .. أعنى تلك المرأة ! »

وضحكت فى رقة ..

كانت (مكورميك) تتأملها فى فضول .. كانت من النوع الذى يمكن وصفه بـ (شقراء رائعة) .. لا أكثر ولا أقل .. وكانت لها رائحة عطرية غريبة لم تميزها جيدًا ، وترتدى تايورًا محتشمًا هادئًا ..

باختصار : لم تبدُ من النساء القويات اللواتى يعرفن ما يجب عمله .. هى مجرد حسناء أخرى تجيد القيادة ..

سألتها الفتاة وهى مستمرة فى القيادة :

- « هل حصلت على رخصة القيادة عن طريق التزوير ؟ »

ابتسمت السيدة (مكورميك) ، فهى قد كفت عن الضيق حين ينتقد أحد قيادتها ، وقالت :

- « إننى أعيش فى الضواحى حيث يوجد ما يكفى من الطريق للجميع .. قلما أجد نفسى فى مواقف

كهذه .. لكن حين أجد نفسى فيها يكون هناك كثير من الزجاج المهشم والصراخ والتعويضات .. »

وفى الدقائق التالية عرفت أن الفتاة تدعى (ليليان) - نسيت اسم الأسرة - وهى سكرتيرة فى الثلاثين من عمرها، عزباء .. وبالمثل عرفت الفتاة الكثير عنها ..

وهنا أبطأت الفتاة محرك السيارة حتى توقفت ، وقالت لمرافقتها :

- « هذه شقتى .. فى هذه البناية .. »

نظرت السيدة (مكورميك) لأعلى لترى بناية سكنية أنيقة ، وإن لم تستطع تذكر اسم الشارع بدقة ..

قالت الفتاة وهى تنظر لساعتها :

- « الواحدة ظهرًا .. علىّ أن أعود لمكتبى خلال ساعة وإلا نسف المدير رأسى .. ما زال الوقت كافيًا لتناول شطيرة أو اثنتين .. »

- « ظننتك فى إجازة يا بنيتى .. »

- « بل طلبت منه إذنًا بالانصراف ، وكان هذا من حسن طالعى لأننى تعرفتك .. هل تقبلين دعوتى إلى بعض المرطبات ؟ »

وميزة ألا يكون لديك شىء آخر تفعله هى أنك مستعد دومًا كى تقبل أى عرض وأية دعوة ..

ولقد أحبت السيدة (مكورميك) (ليليان) على الفور ، وأحست بفضول لترى كيف تعيش فتاة براقة كهذه .

هزت رأسها أن نعم ، وترجلت .. بينما الفتاة تغلق باب السيارة ، وتتقدمها نحو مدخل البناية .. تستدعى المصعد .. تدعوها للدخول فيه ..

* * *

شقة جميلة حقًا تشى بثراء وبذوق راق ..

تأملت السيدة (مكورميك) المكان فى اهتمام ، بينما طوحت الفتاة بحذائيها وهرعت إلى المطبخ لتعدّ مرطبًا ما ..

كانت هناك - على الجدار - قطعة عملاقة من الجلد رسمت عليها بألوان بدائية خشنة نقوش ورسوم أولية للحيوانات ، كما كان هناك درع إفريقى عملاق من الخشب السميك تمت زخرفته بألوان زاهية ، وتقاطع من تحته رمحان .

عادت الفتاة حاملة صينية عليها طبق به بعض الشطائر، وكوبان من عصير البرتقال أعدتهما بأناقة ، ولم تنس غرس شريحة برتقال على حافة كل كوب ..



ورشفت السيدة (مكورميك) رشفة من البرتقال ، وهى تنظر بطرف عينها إلى منضدة زجاجية أنيقة إلى جانبها ..

سألتها السيدة (مكورميك) وهى تتناول أحد الكوبين :

- « هل زرتِ (إفريقيا) يومًا ؟ »

نظرت الفتاة للجدران ، وقالت فى مرح :

- « زرتها مرارًا لكن وأنا هنا .. فى خيالى ! هذه الأشياء خاصة بقبائل (البانتو) .. لدىّ بعض تذكارات (الماساى) لكنها عظيمة القيمة لأن (الماساى) قد انقرضوا تمامًا .. كانت أيامًا جميلة ! »

ورشفت السيدة (مكورميك) رشفة من البرتقال ، وهى تنظر بطرف عينها إلى منضدة زجاجية أنيقة إلى جانبها.. كانت على المنضدة حقيبة الفتاة ومفاتيحها .. وقد انفتحت الحقيبة عند وضعها بإهمال فبرزت منها بعض الأوراق وبطاقة هوية .. وشىء آخر لم تدر ما هو إلا حين دققت أكثر .. إنها رخصة سيارة .. وبالتحديد سيارة (فولكس) لونها أزرق موديل عام ١٩٩٠

سيارة (فولكس فاجون) زرقاء !

إذن الفتاة تكذب .. إنها تملك سيارة ، وإلى حد كبير هى لا تختلف عن السيارة التى صدمتها هى حين وثبت سيارتها للأمام ..

فهل كانت تلك هي سيارة الفتاة ؟

وما معنى هذا حقًا ؟

لماذا تنكر الفتاة أن هذه سيارتها ؟ لماذا لعبت كل هذا الدور المعقد ؟

مستحيل أن تصل بها حماسة الانتقام إلى إحضارها هنا لقتلها مثلاً ، ولمجرد أنها هشمت مصباح سيارتها الخلفى ..

رشفت رشفة أخرى من البرتقال وواصلت اختلاس النظر للأوراق التى برزت لا مبالية من الحقيقة ..

وكانت النظرة التالية كافية لأن تضع كوب البرتقال وتقرر الانصراف .. نظرة لبطاقة الهوية أخبرتها أن اسم الفتاة ليس (ليليان) ..

هذه كذبة أخرى تثير الريبة ..

إن اسمها الحقيقى هو .....

أين ذهبت الفتاة ؟

طاخ !

آى !

* * *

٥ - قُل لها أن تعود ..

فرغت من العمل فى قسم العظام مع المختص الهولندى د. (هنسلى) ، وهو عمل شاق حقًا انتهيت منه فى السابعة إلا الربع مساء ..

محطمًا مفكك الأوصال غادرت المكان ، عازمًا على النوم عشر ساعات كاملة على سبيل الانتقام ..

هنا سمعت من يدعونى إلى مكتب المدير .. هذا منطقى .. مستحيل أن تمرّ بى السابعة مساء إلا وأنا فى مكتبه .. هذا أمر محتوم ..

كان (بارتلييه) يلتهم عشاءه كالعادة فى المكتب ، ومعه رئيس المستخدمين الكاميرونى (ميتاموا) ؛ فأدركت أننى مفصول لا محالة .. لماذا ؟ لا أدرى .. مثلما يحدث فى روايات (كافكا) حين يُحكم على المرء بالإعدام دون سبب ..

قال لى المدير وهو يصبّ بعض القهوة :

- « مرحبًا يا (عبد العظيم) .. لقد أخبرونى عن حالة جلطة وريد الساق العميق ، التى حسبتها أنت

آلامًا روماتزمية ، وكدت تعطى المريض بعض أقراص الأسبرين وتدعه ينصرف .. »

تمالكت أعصابى ، وقلت من بين أسنانى :

ـ « لكنى لم أفعل يا سيدى .. كان (شلـ ...) .. البروفسور (شلبى) مارًا بى فناديته وطلبت رأيه، لكنه بالطبع لم يصمت .. لا بد من أن يدس بعض السمّ فى الموضوع ، فلا خدمة خالصة لوجه الله أبدًا .. »

ثم ابتلعت ريقى ، وقلت مردفًا :

ـ « إننى أتعلم يا سيدى .. لا بد من أن يُسمح لى ببعض الأخطاء ما دام هذا لا ينبع من إهمال ، وما دمت أطلب رأى الخبراء دومًا .. أو يمكنكم الانتظار حتى يقبل (أبو قراط) أن يعمل عندكم .. »

هزّ رأسه غير مقتنع ، ثم أشار لى كى أجلس :

ـ « سنكتفى بك إلى أن يقرأ (أبو قراط) إعلاننا .. والآن أريد أن أسألك عن أخبار د. (جونز) .. »

جلست، وتساءلت فى سرى عن سبب هذا الطلب..

ـ « هى بخير يا سيدى .. ألم تكتب لك ؟ »

ـ « بلى .. تلقيت خطابًا منها .. لكننى لا أشعر براحة .. »

ـ « لا أفهم .. تقول إنها بخير وإنها تخلصت من تلك الرؤى .. »

ـ « هذا هو ما قالته لى .. وقد أرسل لى طبيبها النفسانى يقول : إننا لم نستطع العثور على تفسير واضح لكل الوجوه الصارخةَ التى رأتها ، لكنها لم تعد تراها على كل حال ، ومن الواضح كذلك أن موضوع القاتل التتابعى إياه قد آذاها نفسيًا .. بل لعلها كانت مؤهلة لتكون من ضحاياه ! »

غريب هذا ! قلت فى حيرة :

ـ « كيف ؟ إنها لم تقل شيئًا من هذا .. »

ـ « لم تقل شيئًا منه للطبيب كذلك .. لكنه يشعر بأنها تخفى شيئًا بإصرار لا يتزحزح .. وهو يعتقد أن الوجوه التى تراها مجرد تفاعل هستيرى نتيجة لذعر شديد شعرت به فى فترة ما ثم نسيته أو أنسيته .. »

ـ « لكنها تتحسن .. أليس كذلك ؟ »

لوّح بورقة فى وجهى يبدو أنها تقرير مطبوع ، وقال :

ـ « هذه هى المشكلة .. أنت تعرف شعور الأطباء بعدم الرضا حين يشفى المريض بلا تفسير .. المريض يسرّه هذا ؛ أما الطبيب فلا ..

والمشكلة التى تقلق الطبيب هى : ما دمنا لم نجد تفسيرًا للمرض ، فمن الممكن أن يعاود المريض فى أية لحظة .. لقد تحسنت (برنادت) لكن من يضمن لى ألا تعاودها الأعراض ذاتها فى (سافارى) ؟ »

ابتلعت ريقى ، وسألته فى كياسة :

- « ما المطلوب منى بالضبط يا سيدى ؟ »
- « الرأى السديد »

قالها فى بساطة ، وأردف وهو يعيد التقرير إلى ملف أمامه :

- « الرأى السديد .. هل أقبل عودة (برنادت) إلى (سافارى) أم أرفضها ؟ »

كدت أصيح : تقبل طبعًا .. ثم قررت أن أبيع للرجل ولا أشترى منه كما يقولون .. قلت فى حذر :

- « القرار قرارك يا سيدى .. »
- « أريد سماع رأيك .. »
- « رأيى أن تعود (برنادت) ، فهى عنصر مهم هنا .. ولو كان علاجها يحتاج إلى متابعة أكثر فإن د. (جونستون) ..... »
- « كنت أتوقع هذا ! »

قالها فى غموض مما أثار غيظى .. لماذا تطلب منى رأيًا تعرفه مسبقًا ؟ هل الغرض إحراجى ؟ ثم ما قيمةَ رأيى أنا الطبيب حديث السن المستجدَ ليسترشد به رئيس هذه الوحدة العملاقة ؟

« خبرة مروّعة » .. « كانت مؤهلة لتكون من ضحاياه »

كلام غير معتاد .. كلام غريب .. متى قابلت (برنادت) سفاحنا الكندى هذا إذن ؟ بالتأكيد حين سافرت إلى (كندا) فى المرة الأولى .. وطبعًا بعد ما تمت زراعة القرنيتين لأنها كانت قبل ذلك كفيفة تقريبًا ، يصعب عليها أن تميز السفاح من صندوق الخطابات ..

ولكن أين وكيف ولماذا ؟ ماذا حدث فى هذا اللقاء ؟ كيف نجت منه؟ ما دور أبيها فى هذه القصة؟

أسئلة عديدة بلا جواب ..

سأكتب لها كى أستفسر منها .. لكن هل هذا خطأ ؟ هل يؤذى علاجها النفسانى ؟ حقًا لا أعرف ..

قال (بارتلييه) وهو يجفف فمه بمنديل ورقى معلنًا انتهاء العشاء :

- « ستكتب لها تدعوها للعودة .. أفضل أن تفعل هذا بدلاً منى .. من العسير علىّ كمدير أن أسأل العاملين عندى العودة .. من يدرى ؟ ربما هى لم تعُد بحاجة إلينا .. إن أباها يملك المال .. والمال يبتاع كل شىء حتى السعادة ؛ وإن لم يصدق الرومانسيون أمثالك حقيقة كهذه ! »

★ ★ ★

وفى غرفتى كتبت لـ (برنادت) أجمل خطاب كتبته فى حياتى ، حتى إننى استعملت القاموس الفرنسى مرارًا كى أدقق فى الإملاء ، وأضع علامات الـ (أكسان) Accent فى موضعها الصحيح ..

الخطاب يمكن تلخيصه فى أربع كلمات : تعالى فنحن بحاجة إليك .. ثم وضعته فى المظروف ورقدت على ظهرى أحلم ..

ستعود (برنادت) ..

ربما لم تشف تمامًا .. ربما ما زالت تهوى تحطيم زجاج العيادات وصفع الأمهات ، لكنى سأساعدها على الشفاء ..

ربما ما زالت ترى وجوهًا صارخة ، لكن كل جنون ينتهى فى لحظة ما .. ومنذ متى كانت الوجوه الصارخة مؤثرة فى كفاءة الطبيب ؟

نظرت لجهاز طرد الأرواح الشريرة - مروحة السقف - وراحت أفكارى تدور مع دورة الشفرات الصدئة ..

ترى ماذا تفعلين الآن يا (برنادت) ؟

★ ★ ★

٦ - هيتش هيك ..

الليل .. البرد .. طريق أسفلتى طويل يجب أن يُبتلع ..

القيادة ليلاً تجعله عصبيًا خاصة مع الأضواء القادمة فى الاتجاه المعاكس .. هؤلاء الحمقى يحسبون مهمتهم فى الحياة أن يصيبوك بالعمى ..

ونظر إلى التابلوه حيث الساعة المضيئة .. إنها الواحدة بعد منتصف الليل وما زال أمامه نصف ساعة من السرعة المنتظمة حتى يجد نفسه فى فراشه ..

ما لم يحدث شىء ..

* * *

وعلى ضوء الكشافات رأى ما يشبه سيارة متوقفة يتوهج ضوؤها بشكل متقطع ، ورأى خيالاً آدميًا يشير له بسبابته طالبًا الصحبة ..

لم يكن ممن يتوقفون لراكبى (الأوتوستوب) ـ أو من يسمونهم بالـ (هيتش هيكرز) ـ لأنه رجل عادى مسالم لا يهتم بالمغامرات ، ورأسه ملىء

بالأشياء الرهيبة التى تحدث للحمقى ممن يسمحون للغرباء بالركوب معهم ..

لكنه تبين الخيال الآدمى بوضوح أكثر على ضوء الكشاف ..

إنها شقراء حسنة المظهر تقف جوار سيارة (فولكس) زرقاء ، معطلة بالتأكيد .. وكل ما فيها ـ الفتاة لا السيارة ـ يوحى بالثقة والارتياح .. فتاة محترمة وجدت نفسها فى مأزق ..

قال له ضميره : توقف .. وقال له عقله : استمر .....

قال له ضميره : ثمة احتمال لا بأس فى أن تكون هذه الفتاة صادقة .. وعندها تكون وغدًا قاسيًا جبانًا .. ما هى فرصتها فى أن تلقى سيارة أخرى يقودها شخص مثلك ؟ شخص لا خطر منه .. شخص يمكن الثقة به .. شخصٍ يملك ضميرًا مثلى أنا ..

وكانت إجابة عقله: حقًا هى فرصة معدومة تقريبًا..

إن العالم يعجّ بالأوغاد ، وما لم تكن هذه الفتاة لصة أو مخادعة فإن فرصتها فى النجاة واهية تمامًا ..

دار هذا الحوار خلال ثلاث ثوان ، وعندما انتهى



إنها شقراء ، حسنة المظهر ، تقف جوار سيارة (فولكس) زرقاء ، معطلة بالتأكيد ..

كان يتراجع بسيارته للوراء حتى صار فى محاذاتها..

وبصوت مبحوح سألها وهو ينزل الزجاج الأوتوماتيكى :

ـ « هيه يا آنسة .. هل من شىء أقدمه لك ؟ »

بصوت نظيف ناصع كالبللور قالت :

ـ « توجد مشكلة ما .. المحرك لا يبدأ .. »

ترجّل وهو ينظر حوله فى حذر متوقعًا انقضاض عصابة السفاكين فى هذه اللحظة بالذات .. لو لم يفعلوها الآن فهم حمقى ..

فتح كبود سيارتها ودقق النظر .. كل شىء فى مكانه .. كان يأمل فى أن يجد شمعة احتراق غير مثبتة أو شيئًا من هذا القبيل ..

فتح باب السائق ، وعالج المحرك .. إنه لا يدور حقًا .. كأنما كان يتوقع أن الفتاة لا تعرف فن إدارة المحرك ..

هكذا أسقط فى يده ، واستنفد ما لديه من خبرة ميكانيكية ، لذا قال لها وهو يترجّل :

ـ « تعالى .. وسأوصلك إلى أقرب ميكانيكى .. »

ـ « أرجو ألا يسبب هذا مضايقة لك .. »

ـ « البتة .. »

وهكذا انطلقت السيارة من جديد حاملة الشقراء التى تعطلت سيارتها فى الواحدة صباحًا .. وحمد اللّه (أنهم) لم يخرجوا من الظلام ليفتكوا به ..

★ ★ ★

اسمها (ليليان).. سكرتيرة .. عزباء .. تضع عطرًا غريبًا جدًا .. هذا هو كل شىء يمكن قوله عنها ..

وحين كانت تضحك : كان يرى لها أسلوبًا فريدًا فى تكوير أنفها .. وتقطيب حاجبيها .. يبدو أنها عادة قديمة لديها .. إنه ليس مصريًا ولو كان لعرف أننا نسمى هذه الطريقة بـ (التشنيكة) ..

سألته عن مهنته واسمه وما إلى ذلك ، فأجابها على قدر السؤال بالضبط دون زيادة ، فهو لا يهوى التبسط مع الغرباء حتى لو كانوا (شقراوات رائعات) كهذه .....

أما ما لم يخبرها به فهو أن مثانته توشك على الانفجار .. لقد أفرط فى احتساء القهوة ، ثم تدخل البرد ليجعله فى أسوأ حال ممكن ، وتأثير المطبات عليه يوشك أن يكون قاتلاً ..

كانت الفتاة تتكلم وهو لا يصغى .. فقط يحتشد العرق البارد على جبينه وعلى خديه ، وهو يحلم .. يحلم بأنهار البول التى ستسيل منه لتخفف آلامه وتروى (كندا) كلها ..

مرّت عشر دقائق ثم لم يعد يحتمل أكثر ..

انحرف إلى اليمين ، وأوقف السيارة على جانب الطريق ..

صاحت فى رعب وقد توجست من هذا التوقف المفاجئ :

ـ « ماذا هنالك ؟ »

قال لاهثًا وهو يفتح الباب :

ـ « سأ .. سأ .. سألبى نداء الطبيعة ! »

ـ « أيةّ طبيعة ؟ »

لم يردّ لأنه كان يركض ملهوفًا نحو الأشجار المظلمة على جانب الطريق ، وتوارى وراء شجرة و ...... كان النازيون يعذبون أسراهم عن طريق ملء مثاناتهم بالماء باستخدام قسطرة بولية ، ولا بد أنه كان أعتى ألوان التعذيب طرًّا .. الآن يفهم هذا ..

نظر من وراء الشجرة ليرمق السيارة الواقفة على

جانب الطريق ، بينما تلتمع أضواؤها .. لكنه لم ير خيال الفتاة بداخلها ..

غريب هذا ؟ إنه الظلام بلا شك .. لعبة خداع بصر بسيطة ..

خرج من نطاق الأشجار قاصدًا السيارة ، حين شعر بشىء معدنى بارد يلتصق بمؤخرة رأسه ..

لم يستغرق وقتًا طويلاً فى الفهم ، ولم تجد لفظة (مسدس) الوقت الكافى كى تحتشد فى ثنايا مخه لأن رصاصة ساخنة أحالت هذا المخ إلى عجين فى جزء من أجزاء الثانية ..

وعلى الأرض تمدد .. عيناه مفتوحتان فى حيرة .. ثقب خروج أحمر قبيح يتوسط جبينه ..

هذه ميتة جميلة .. ميتة رجل لم يجد وقتًا كى يخاف ..

* * *

وفى الدقائق التالية ..

ستركب الفتاة السيارة عائدة بها إلى حيث تركت سيارتها (الفولكس) الزرقاء .. ستقود سيارة الرجل إلى ما وراء نطاق الأشجار لتواريها هناك بضع ساعات ، ثم تنزع قفازيها وتعود لسيارتها الغافية ..

تعيد إلى البطارية ذلك (الكابل) الذى انتزعته عمدًا ، والذى لم يلاحظه الأحمق برغم أنه أمعن النظر ..

لا بد من هذا .. فأول ما يفعلونه هو أن يجربوا تشغيل المحرك بأنفسهم .. ولا بد ساعتها من أن يجدوه معطلاً حقيقة ..

الآن ستعود لدارها ..

وعليها أن تتجاهل كل من يحاول إيقافها بطريقة (الأوتوستوب) .. فهى - ولا تعرف السبب - تخشى الغرباء كثيرًا ..

* * *

٧ - شرطي شديد المراس ..

الآن نقدم لكم (آلان بريدجز) ..

من النادر أن يلقى المرء هذا الطراز من رجال الشرطة شديدى المراس .. قد يساوركم الشك .. قد ترتابون فى كلامى ؛ لكنى أؤكد لكم أن (بريدجز) شرطي شديد المراس ..

ولأنه كذلك ، ولأنه يمقت الجريمة كان عليه أن يواجه المتاعب التى لا تنتهى مع رؤسائه .. احتاج الوقت إلى عامين كى يشفى من داء إطلاق الرصاص دون مبرِّر قوى ، واحتاج إلى أكثر كى يكفَّ عن توجيه اللكمات إلى المقبوض عليهم ، أما عن السباب فلم يشف منه قط ..

لكنه - فى حادث السطو الأخير - تصرَّف بحماس مبالغ فيه ، وآذى اللصين كثيرًا ، وفى العالم المتحضِّر تغدو هذه جريمة لا يمكن غفرانها مما جعل رئيس الشرطة يستدعيه إلى مكتبه ، ويوجه له الكثير من اللوم .. فهو - وهذا غريب - يعتقد أن المتهم برىء حتى تثبت إدانته ..

ثم كان القرار النهائى هو الاستغناء عن خدماته فى دائرة الشرطة ، ووجد (بريدجز) نفسه فى سن الخامسة والأربعين بلا عمل ، وبلا زوجة - لأنه كان يضربها أيضًا - وبلا خطط ..

قالوا له إنه (سايكوباث) - مريض اجتماعيًا - عاجز عن التكيف ، وقالوا له إنه وحش لم يتعلم قواعد التحضُّر ..

لكنه كان لا يعرف سوى أنه - فقط - شرطى شديد المراس ..

* * *

لا بد من حلّ ..

إن مدخراته تنفد سريعًا ..

ربما يمكنه أن يفتح مكتبًا خاصًا للتحريات Private eye ، يجلس فيه بلا عمل سوى قراءة الصحف ، وإطلاق الأسهم المقذوفة على لوحة رماية على الجدار ، والتظاهر بأنه مشغول جدًا حين يجىء صاحب العقار طالبًا الإيجار ، أو حين يجىء أول زوج يطلب مراقبة زوجته ، أو أول سيدة ثرية تريد البحث عن كلبها ..

هذه هى التقاليد ولا بد من أن تسرى عليه ..

كان جالسًا فى المكتب الذى افتتحه فى شارع (لومبارد) ينعم بالتعاسة والفراغ ، يتسلى بالفول السودانى ، وينتظر رزقًا لا يجىء ..

حين دق جرس الهاتف ..

رفع السماعة فجاءه صوت بللورى شفاف يقول :

ـ « هاللو .. هل هذا مكتب (بريدجز) للتحريات؟ »

ـ « يمكننى أن أقسم على هذا يا سيدة .. »

كان قد تعلم أسلوب الكلام الفظ الأنفى الذى يستعمله المخبرون فى الأفلام السينمائية ، خاصة أشهرهم (سام سبيجل) .. لا بأس بهذا فهو يجعله يبدو محنكًا واثقًا ..

جاءه الصوت يقول :

ـ « إن الموضوع يتضمن مالاً وفيرًا .. فقط عليك أن تتواجد فى متنزه (بوليفار) فى تمام الرابعة بعد الظهر .. أنا شقراء وأضع عوينات سوداء وأرتدى معطفًا طويلاً أسود .. وأنت ؟ »

فكر قليلاً ثم غمغم :

ـ « أنا أبدو كشرطى شديد المراس .. هل هذا كاف ؟ »

ـ « مؤقتًا .. »

ووضع السماعة وابتسم .. كما يحدث فى الأفلام تمامًا .. العميلة الشقراء الغامضة التى تقدم له لغزًا غامضًا ثم تهيم به فى نهاية الفيلم ..

لم يكن ذا عقلية تحليلية أو ذكاء مرموق .. فى الواقع لم يكن يجيد سوى الضرب .. لكنه كان يعتبر العمل البوليسى كتلة من المثابرة ، ولم يعتبر القدرات العقلية الخارقة إلا جزءًا ضئيلاً جدًا من الموضوع ..

لهذا ذهب إلى الموعد ..

★ ★ ★

كان يبحث عن شقراء بعوينات سوداء ومعطف طويل أسود ، وكانت تبحث عن شرطى شديد المراس .. لهذا كان احتمال الخطأ واهيًا ..

والتقيا ، فدعته إلى الجلوس على مقعد فى المتنزه الذى ترى منه بحيرة (أونتاريو) بارعة الحسن ..

مدت يدها إلى كيس ورقى وبعثرت بعض حبوب ، كى تلتقطها الحمائم.. وبدت منتشية بالمشهد كثيرًا ..

سألها وهو يشعل لفافة تبغ كى ينسى رائحة عطرها الغريبة :

ـ « لماذا لم تجيئى لمكتبى وينتهى الأمر ؟ »

ـ « لأن مكاتبكم تكون عامرة بأجهزة التسجيل ، ويمكنك بعدها ابتزازى بما لديك من اعترافات .. »

ـ « هذا ذكاء مريض .. »

ـ « إن السينما قد علمتنا الكثير .. »

نفث سحابة الدخان فى إنهاك ، ثم سألها :

ـ « ما هى مشكلتك إذن ؟ »

ـ « إننى أرغب فى مراقبة شخص وتقديم تقرير كامل عنه لى .. »

أخرج من جيبه مفكرتـه الصغيرة وقلمـًا ، واستعد لكتابة ما يملى عليه :

ـ « الأوصاف .. الاسم .. »

ـ « لا مشكلة هنالك .. إنه أنا ! »

ـ « تريدين تقريرًا كاملاً عنك ؟ »

ـ « نعم .. من لحظة انصرافى من هنا وحتى نلتقى بعد ثلاثة أيام ! »

ومن حقيبتها أخرجت رزمـة ورقية مكتنزة يسيل لرؤيتها اللعاب ، ودستها فى جيبه ، ثم قالت :

ـ « اتفقنا ؟ »

فى غباء سألها :

ـ « لحظـة .. أنـا لا أتلقى طلبات كثيرة من هـذا النـوع .. هل تريدين القول إنك تريديـن أن أراقبك للحماية من شخص معين ؟ »

ـ « بـل كلامـى واضـح .. أريـد أن تحكـى لـى بالتفصيل ما أفعله أنا ! »

ـ « هذا غريب.. تتكلمين كمن يمشـون فـى أثنـاء النوم، ويريدون معرفة ما يفعلون فى أثناء نومهم هذا..»

ابتسمت فى غموض ، وقالت :

ـ « أنت لا تتلقى أجـرًا كى تسـألنى .. أنـا التى سأسألك .. »

نظر لها فى حـيرة بعض الوقت ، ثم طوّح بعقب اللفافة ، وفتح قلمه متأهبًا للكتابة :

ـ « ليكن .. ما اسمك ؟ »

ـ « اسمى (ليليان) .. وهو ليس اسمًا حقيقيًا .. يمكنك أن تجد اسمى الحقيقى بنفسـك ، لكـن هـذا يحتاج إلى براعة .. »

فى ضيق غمغم :

ـ « طبعًا لا عنوان ولا شىء كهذا .. »

- « طبعًا .. وبعد ثلاثة أيام ستنال مبلغًا كهذا الذى فى جيبك لو جئتنى بتقرير دسم .. »

« المجانين لن ينتهوا من العالم » - قالها لنفسه وابتلعها .. إن الأوراق المالية فى جيبه لها ثقل ودفء ولا بأس بهما أبدًا .. المجانين لن ينتهوا من العالم ولولاهم ما ربح أمثالنا مليمًا واحدًا .. »

نهضت الفتاة مبتعدة .. ولاحظ أنها ترتدى حذاء أسود ذا رقبة لتضيف المزيد إلى انطباع الغموض هذا ..

إذن بدأت المهمة الآن .. ويا لها من سرعة ! كان يتوق إلى أن يغفو قليلاً ثم يتناول عشاءً دسمًا ، وفى الصباح يبدأ العمل .. لكن عليه الآن أن يلحق بها فهى الخيط الوحيد أمامه ..

رآها تركب سيارة (فولكس) زرقاء ، فتدير محركها وتنطلق .. لم يكن يملك سيارة ، لذا استوقف سيارة أجرة ووثب فيها ، وكما هو معتاد طلب من سائقها أن يقفو أثر (الفولكس) ..

- « إنها صديقتى وقد نسيت مالها معى..»

وكالعادة لم يصدق السائق حرفًا ، لكنه انطلق مطاردًا على كل حال ..

وفى مفكرته دوّن (بريدجز) رقم السيارة الـ (فولكس) .. هكذا صار يعرف اسم الفتاة وعنوانها الحقيقيين .. إن هى إلا مكالمة لدائرة المرور وينتهى هذا السؤال الأولى .. إن هؤلاء الهواة يحسبون المحترفين حمقى ..

* * *

كان يومًا مرهقًا بحق ، فالفتاة كثيرة الحركة ، حتى إنه ظل يصبو إلى لحظة واحدة يتركها فيها مطمئنًا ليجرى بضع مكالمات هاتفية ..

فى النهاية - العاشرة مساء - دخلت كافتيريا صغيرة .. وكان هو عليمًا بجغرافية هذه الكافتيريا ومخارجها .. فى الواقع لم يكن لها سوى مخرج واحد .. اتجه إلى جهاز هاتف عمومى يكشف له المخرج وطلب رقم أحد أصدقائه من رجال الشرطة المتقاعدين ذوى مكاتب التحرى ..

- « مرحبًا يا (جيروم) .. »

وأملاه رقم سيارة الفتاة وطلب منه معلومات مفصلة عنها ، ثم طلب أن يرسل له واحدًا من رجاله ليتولى عملية مراقبتها :

ـ « أنا مرهق يا (جيروم) ، والفتاة تتحرك كالبراغيث.. لا أشعر بقدمىَ.. بينما هى لا تتعب أبدًا.. أريد أن يراقبها خمس ساعات أو ستًا لا أكثر.. نعم.. نعم .. سأدفع المبلغ المعلوم .. لا تخش شيئًا .. أريد ترتيب وردية متبادلة بينى وبينه فلن أظل فى هذا الجحيم ثلاثة أيام وحدى .. »

وأشعل لفافة تبغ ووضع السماعة فى مكانها ، ثم راح يرمق باب الكافتريا الذى يتوهج بالضياء وسط الظلام ..

عشر دقائق ودوّى رنين الهاتف ..

إنه (جيروم) .. لقد فرغ من التحرى .. إن هذه العمليات لا تستغرق وقتًا فى بلد مثل (كندا) ..

رفع السماعة فجاءه صوت (جيروم) :

ـ « ألو يا (آلان) .. إن (همفرى) قادم لك حالاً خلال ثلث ساعة .. »

ـ « لكن الفتاة قد لا تنتظر كل هذا .. »

ـ « هذه مشكلتك .. حاول تعطيلها أو اثقب إطار سيارتها .. ليس من عملى أن أجد لك مساعدًا يجيد الطيران ! »

ـ « ليكن .. ومن هى ؟ »

ـ « اسمها (برنادت جونز) .. طبيبة أطفال .. تعمل فى منظمة صحية دولية اسمها (سافارى) ، وهى مقيمة فى (الكاميرون) ، لكنها فى إجازة حاليًا.. هل من أسئلة أخرى ؟! »

* * *

٨ - شرطى شديد المراس ، ولا يُخدع بسهولة

بعد ثلاثة أيام ..

جلس (بريدجز) فى مكتبه يطالع الصحف .. كومة هائلة منها بدا أنه يقلبها فى إهمال شديد بحثًا عن شىء بعينه ..

سمع قرعات على الباب ، فدارى القنينة فى الخزانة خلفه كى لا يراها القادم ، وأنزل حذاءيه عن المكتب قبل أن يقول : ادخل .....

ينفتح الباب لتدخل الفتاة ..

طوحت بكفيها فى الهواء بحركة عصبية، وهتفت :

- « تبًا ! كل هذا الدخان ! هل تحرقون إطارات السيارات هنا ؟ »

- « لا بد من دخان للمخبر الخاصَ .. هذه هى التقاليد .. »

وضعت حقيبتها على مقعد ، وجلست على المقعد المقابل له ، وقالت :

- « هل انتهيت من تقريرك ؟ »

- « طبعًا .. وقد أتعبتنى كثيرًا كأنما كنت تتسلين بفكرة أننى خلفك .. إن مطلبك غريب ، ولا أدرى أية إضافة سأقدمها لك غير ما تعرفينه فعلاً .. ولكن .. ليكن .. هو ذا التقرير .. »

ومدّ يده لها بخمس ورقات (فلوسكاب) مثبتة بدبوس فى طرفها ، وكان من الواضح أنه دوّن ملاحظاته على شكل جدول من ثلاثة أعمدة .. العمود الأول للوقت ، والثانى للمكان ، والثالث للفعل ..

غمغمت فى إعجاب وهى ترمق الورق :

- « مرحى .. يبدو أنك منظم جدًا .. »

- « هدفنا راحتكم .. »

ثم مدّ كفه المفتوحة نحوها :

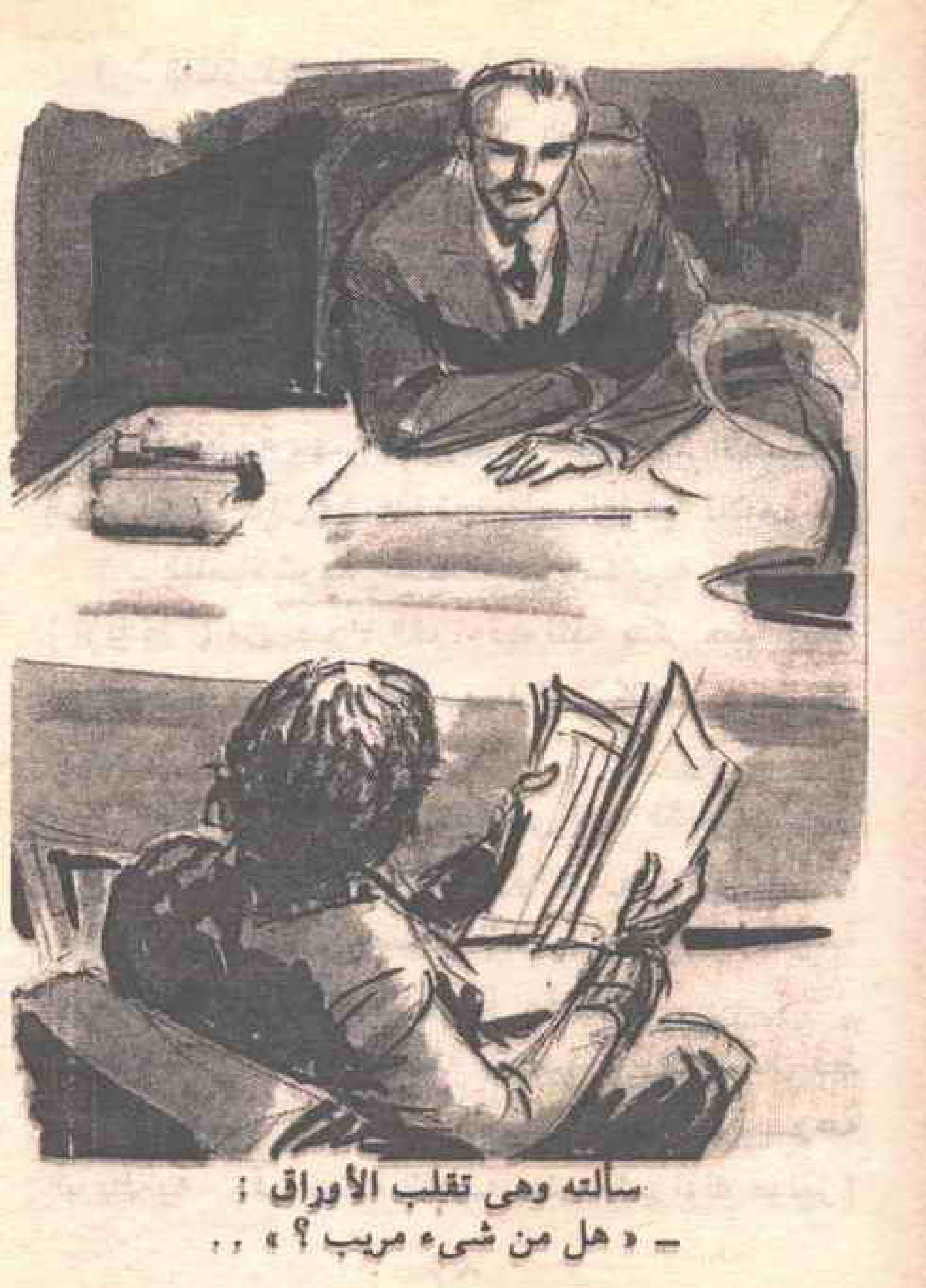
- « والآن أتعابى .. إننا لن نحسب النفقات باعتبار هذا أول تعامل بيننا .. »

مدّت يدها فى حقيبتها وأخرجت رزمة دسمة مكتنزة ألقتها أمامه ، وقالت دون أن تنظر له :

- « لم أتأكد بعد مما هو مكتوب، لكنى أثق بك ..»

ابتسم فى مرارة ساخرة :

- « ولهذا قبلت المجىء للمكتب بدلاً من المتنزه .. يبدو أننى أحرزت بعض النقاط لديك .. »



سألته وهى تقلب الأوراق :
- « هل من شىء مريب ؟ » . .

ومدّ يده يلتقط الرزمة ثم يدسها فى جيبه ..
يا للدفء الجميل !

سألته وهى تقلب الأوراق :

- « هل من شىء مريب ؟ »

- « أنت تعرفين أنه ما من شىء مريب يا دكتورة (برنادت) .. »

رفعت عينيها نحوه كأنما بهتت ، ثم ابتسمت وقالت :

- « حقًّا تؤدى عملك جيدًا .. »

- « لو لم أكن قد عرفت إسمك فمعنى هذا أننى كنت أتسلَّى بلعب الشطرنج فى الأيام الثلاثة الماضية .. »

ثم بغموض المخبرين قال :

- « إن لنا أساليبنا ! »

وراح يرمق انعكاس الأوراق فى زجاج عويناتها الأسود ..

* * *

لطالما تساءل عن سرّ مطلبها الغريب ، وهو لم يكن قط ذكيًا ، لكنه استطاع أن يضع ثلاثة احتمالات :

١ ـ الفتاة تفعل أشياء خارجة عن وعيها وإرادتها كما يحدث لدى مرضى (الجوال الليلى) ، وهى تريد من يثبت أو ينفى هذا .

٢ ـ الفتاة تختبره وتمتحن قدراته الاستخبارية : ولكن ما النفع الذى يعود عليها من هذا ؟ ولماذا تدفع له هذا المال الوفير ؟ مستحيل أن يكون هذا كله استعدادًا لقضية مهمة ستعرضها عليه بعد الاطمئنان إلى براعته .. إن فى هذا تحميلاً مبالغًا فيه للأمور .

٣ ـ الفتاة تريد إبعاده عن مكتبه : لم يكن (بريدجز) من هواة القراءة ، لكنه يذكر جيدًا قصة (رابطة ذوى الشعر الأحمر) التى كتبها (كونان دويل) ..

فى هذه القصة عُرضت على أحد الشباب ـ من ذوى الشعر الأحمر ـ وظيفة مغرية : كل ما عليه هو أن يذهب إلى مكتب فى وسط (لندن) لينسخ الموسوعة البريطانية كتابة .. هكذا ! وبأجر مغر جدًّا ..

وهكذا مارس الفتى عمله بانتظام ، ولم يسأل قط عن المستفيد من نسخة بخط اليدَ للموسوعة البريطانية .. فى نهاية القصة يعلن (شيرلوك هولمز)

أن الفتى ـ ببساطة ـ أحمق .. كان الغرض من هذه الوظيفة المغرية إبعاده عن شقته طيلة ساعات النهار ، والسبب : حفر نفق من شقته إلى المصرف المجاور بغرض السطو عليه طبعًا !

لم تغب هذه القصة عن ذهن (بريدجز) لكنه استبعد هذا الاحتمال .. فمكتبه لا يجاور مصرفًا أو متجرًا للمجوهرات ، وليس فى المكتب نفسه أى شىء يمكن سرقته سوى جبل من أعقاب السجائر ..

هكذا ظل أقوى الاحتمالات أولها .....

الفتاة تفعل أشياء لا تدرى إن كانت تفعلها أم لا ..

★ ★ ★

عودة لانعكاس الورق على زجاج عويناتها الأسود..

قالت له وهى تواصل القراءة :

ـ « ثمةَ فترةَ مفقودة .. أول من أمس فى الثامنة مساءً .. لقد دخلتَ دار السينما .. ألاحظ أنك لم تدوّن حرفًا حتى الحادية عشرة مساءً حين رأيتنى أدخل البناية التى أسكن فيها .. »

هزّ رأسه مبتسمًا وقال :

ـ « كانت السينما مزدحمة ، وفقدتك فى الزحام ..

بحثت فى المقاعد كلها فى الظلام لكنى لم أجدك .. انتظرتك على البابِ الخارجى عند انتهاء العرض لكنى لم أرك .. هكذا هرعت إلى منزلك أنتظرك هناك .. إن هذه الأشياء تحدث .. »

- « والسيارة ؟ ألم تكن أمام السينما ؟ »

- « بلى كانت هناك طيلة العرض ، وحتى عدت أنت فى الصباح لتأخذيها من ساحة الانتظار .. »

- « ألا تجده تصرفًا غريبًا بعض الشىء ؟ »

- « بل وأجده مريبًا جدًا ، لكن هذه ثغرة واحدةً فى سجادة متقنة الصنع نسجتها ثلاثة أيام بلا انقطاع .. »

زمت شفتيها غير راضية ..

لقد اختارته لغرض واحد هو أن يخبرها بثغرة كهذه .. وها هى ذى قد أفلتتْ منه .. الأحمق !

أما هو فابتلع ريقه ودفن وجهه فى أوراقه ..

★ ★ ★

لم يكن هو الذى يراقبها ساعتئذ .. كان (همفرى) هو الذى وقف أمام دار السينما يراقبها وهى تحصل على تذكرتها ..

وكان (همفرى) مخبرًا عتيدًا لا يقع فى تلك

الأغلاط السهلة .. هو يعرف أن دخوله السينما يعنى ببساطة فقد أثرها فى الظلام .. الحلّ فى موقف كهذا هو الانتظار بقرب الباب ، ودون ملل ..

التنكر ؟ نعم يمكنها عمل هذا فى الحمام .. يمكنها ربط إيشارب حول شعرها ونزع العوينات ، وربما تثبيت بطن منتفخ يوحى بأنها حامل ..

لكن لماذا تفعل هذا ؟ دعك من أنها لا تحمل حقيبة تسمح بكل هذا .. ليس فى يدها إلا (بورتفوليو) صغير دقيق ..

طال انتظار (همفرى) البدين نصف ساعة فى البرد القارس ؛ ثم رأى الفتاة تغادر السينما .. لم يتغير فى مظهرها شىء ..

الشىء الجديد الوحيد كان ذلك الفتى الذى يتأبط ذراعها ، ويطلق الدعابات فى مرح .. شاب فارع القامة له شعر طويل أشقر كالفتيات ..

وفى دهشة رآها (همفرى) تتجه مع الشاب إلى سيارة (بورش) سوداء تقف فى ساحة الانتظار المواجهة للسينما ..

هووم ! غريب هذا !

إنها لم تركب سيارتها إذن ..

أدار مفتاح محرك سيارته العتيقة .. كروكروكروكرو..

دورى أيتها الحسناء .. لا جدوى .. كروووو .. دورى أيتها اللعينة ! لا جدوى .. كان يعرف أنها تحتاج فى الغالب إلى شتائم أقوى .. فى العادة تكفى (دورى يا كتلة الحديد الصدئة) لإدارتها ، وربما اقتضى الأمر بصقة أو ضربة بقبضة يده على (التابلوه) ..

أخيرًا دارت السيارة، وانطلق يقتفى أثر (البورش)..

لكن (كتلة الحديد الصدئة) لم تكن ممن ينسى الإهانة بسهولة ، فسرعان ما قررت أن تتوقف فى عناد ، محدثة أصواتًا أنفية توحى بالبكاء .. حتى برغم كل ما قاله لها (همفرى) من عبارات مديح وتدليل ..

لقد فقد أثر الفتاة ..

★ ★ ★

شىء ما أثار انتباه (بريدجز) فى صحف الصباح ..

الشىء هو خبر عن العثور على جثة شاب قتيل فى حىّ ناء من أحياء المدينة .. الشاب يُدعى (جيمس وودورد) ، فى السابعة والعشرين من عمره ،

مهندس .. وكانت له صورة باسمة تظهره ، فارع القامة ذا شعر أشقر يتهدل على كتفيه ..

لقد وجدوا سيارته (البورش) السوداء مفتوحة الأبواب ، والفتى بداخلها ميتًا كأفضل ما يكون الموت ..

وتصلب جسد (بريدجز) .. « فارع القامة » .. « شعر أشقر على الكتفين » .. « (بورش) سوداء » .. إن هذه الصفات تبدو مألوفة .. مألوفة أكثر من اللازم ..

يبدو أن الفتى قُتِل فى العاشرة من مساء أمس .. العاشرة من مساء أمس ..

★ ★ ★

وتصفح الجرائد القديمة باهتمام أكثر ..

كانت سلسلة الجرائم المتتابعة قد عادت تحدث الهول فى المدينة ، وقيل إن السفاح القديم ما زال متحمسًا ..

اقتضى الأمر وقتًا لا بأس به حتى يجد الضحية الأولى (ليندا مكورميك) .. أرملة فى الخمسين من عمرها .. جثة مخنوقة .. آثار ضربة فى مؤخرة

الرأس .. شوهدت آخر مـرة خارجـة من المصرف ، تركب سيارتها مع شقراء ..

الضحية التالية (جيسون ويليامز) .. جثة على جانب الطريق السريع .. ثقب فى الرأس .. الجثة بين الأشجار .. سيارته على بعد أميال متوارية بدورها ..

وسرت القشعريرة فى عموده الفقرى .. إن هـذا لمريب ..

* * *

ومـا زال (بريدجز) يرمق انعكاس الأوراق على نظارتها السوداء ..

قال لها وهو يقاوم رغبة عاتية فى لكمها فى أنفها:

ـ « والآن .. هلا قدمت لى تفسيرًا عما فعلتـه فى تلك السويعات التى اختفيت فيها ؟ »

فى نوع من التبرم قالت :

ـ « معذرة .. حسبت هذا عملك .. »

قال ضاغطًا على أعصابه :

ـ « لـو كنـت تبحثين عن حجـة غياب Alibi فلن أمنحك واحدة ، ولسوف أشـهد أمـام أيـة محكمـة أنـك فررت من مراقبتى حينما توفى ذلك الشاب ! »

بدا عليها الاهتمام ، فرفعت عينيها نحوه خلـف العوينات السوداء :

ـ « لحظة ! أى شاب ؟ »

فلـو كان مصريًا لقـال لهـا : (استعبطى يا ختى) أو أية لفظة مماثلة معبرة ، لكن الفرنسية لم تسعفه للأسف ، فقال لها :

ـ « (جيمـس وودورد) الـذى غـادرت السـينما معه ! »

هتفت فى حرارة :

ـ « تكلم ! أنا لا أعرف شيئًا عن الموضوع .. أنت تعرف إذن ! »

هنا ضرب المكتب بقبضته ..

قال لها مجمع شكوكه .. إنه ـ ببساطة ـ يعتقـد أنها تمارس هواية قتل الغربـاء ، فى الغالب علـى سبيل التسلية ، ولا يوجد ما يثبت كلامه لكن الشـرطة قادرة على ذلك دون شـك .. هنـاك البصمات واختبـار (المـولاج) ، وشعر الرأس الملتصق بالسـيارات ، وبقع الدمَ التى توجد دائمًا حيث لا يراها سوى رجـال الشرطة ..

لم تتكلم كثيرًا .. ظلت تصغى لكلامه كأنها تحولت إلى تمثال من ملح ..

وحين انتهى، قالت وهى تلتقط منديلاً من حقيبتها :

ـ « هل أبلغتهم بشىء ؟ »

وبيد مرتجفة مسحت طرفى النظارة السفليين مما دله على أنها تبكى .. ذلك البكاء الصامت الذى لا يظهر فى الصوت ولا أى شىء ..

قال لها فى ضيق :

ـ « حتى هذه اللحظة .. لا .. »

ـ « هل ستبلغهم ؟ »

ـ « لا .. »

وفرك يديه فى توتر ، وأردف :

ـ « إن المخبر الخاص شأنه شأن الطبيب النفسى .. كلاهما لا يتكلم عن أسرار عميله أبدًا ، وهو غير ملزم بإبلاغ الشرطة أو الشهادة .. هذا هو أساس عملى : الثقة .. »

ـ « إذن .. لماذا أخبرتنى بهذا كله ؟ »

ـ « لتعرفى أننى لست أحمق .. لقد قمت بعملى جيدًا وإن لم أحبَّ ما عرفته ، ويخيل لى يا دكتورة

أنك مريضة جدًا جدًا .. أقترح أن تطلبى عون طبيب نفسى .. »

بعد تفكير سألته :

ـ « هل ستقوم بابتزازى كى لا تفشى السر ؟ »

ـ « لا أظن .. أنا شرطى عنيف مندفع ، لكنى لست وغدًا .. »

ـ « هل سمع أحدهم محادثتنا هذه ؟ »

ـ « هذه الجدران سميكة جدًا لا تسمح بانتقال صوت قبلة .. »

صمتت قليلاً ، وقد هزمت تمامًا ثم عادت تسأله :

ـ « إننى بحاجة إلى الاطمئنان إلى سرى ، فاغفر لى إلحاحى.. لا بد أنك أجريت تحريات عديدة عنى .. هل هؤلاء الذين سألتهم عنى مصدر خطر ؟ »

ابتسم فى ثقة ، وقال وهو يسترخى فى مقعده .. »

ـ « بتاتًا .. إنهم ينسون الأمر فور إبلاغى به ، ولا يحتفظون بأية أوراق تسبب المتاعب .. »

بدا عليها بعض الارتياح .. ومن جديد سألته :

- « متأكد ؟ »

- « متأكد تمامًا .. »

- « إذن ...... »

وقبل أن يفهم ما يحدث ، مزقت الطلقة رأسه .

* * *

٩ - عـودة الغائبة ..

عادت (برنادت) إلى (سافارى) أخيرًا ..

لم تنتحر ولم تفقأ عينيها بطريقة (أوديب) .. عادت هى هى ولكن أقل شحوبًا ، وأكثر مرحًا .. ليس كما كانت بالطبع فثمة سحابة من الحزن على محياها .. إنها صورة سيئة لكنها قابلة للحياة على الأقل ..

وكان هناك احتفال صغير لكنه حزين ..

بالتدريج تفقد هذه الاحتفالات الصغيرة المقامة للعائدين طابعها المرح ، وتغدو أقرب إلى تمثيلية باهتة يتظاهر ممثلوها بأنهم سعداء .. تمثيلية لها طابع (السبوع) الذى تقيمه السجينات فى سجن النساء للمواليد الجدد فى الزنزانة ..

وأخيرًا تجرأتُ فسألتها همسًا :

- « هل زالت الرؤى ؟ »

قالت إجابة دقيقة جدًا :

- « لم تعد تأتى .. »

وفى الأيام التالية دارت عجلة العمل فى (سافارى) فنسينا ما كان ..

★ ★ ★

فى ذلك اليوم كنت منهمكًا فى عيادة (الأنف والأذن والحنجرة) مع د. (ألبرتو بوتسو) الإيطالى ، وقد استطعت أخيرًا السيطرة على أداة التعذيب النازية المسماة بمرآة الجبهة .. أخيرًا يمكننى أن أسلطها بثقة على أنف المريض أو حلقه دون مشاكل ..

أقول إننى كنت منهمكًا حين سمعت (بوتسو) يحيى شخصًا ما فى تهذيب ويدعوه للجلوس ، ثم سمعت صوت (برنادت) يستأذن الطبيب فى اقتراضى لبعض الوقت .. وكالعادة كان الجواب هو (خذيه بلا رجعة لو أردت) ..

نزعت المرآة عن جبهتى ، واستدرت لأجدها واقفة على الباب ، وقد دست يديها فى جيبى معطفها الأبيض بانتظارى ..

اتجهت معها إلى الممر الخارجى الذى يقود لجناح الإدارة ..

قالت لى بصيغة رسمية :

ـ « كيف حالك يا (علاء) ؟ »

ـ « بخير .. وأنتِ ؟ »

ـ « بالطبع فى أسوأ حال وإلا لما جئت فى هذا الوقت .. »

ثم خفضت من صوتها ونظرت حولها بحذر .. أخيرًا قالت :

ـ « ثمة من يُدعى (روبير جاكوب) فى مكتب المدير الآن .. »

ـ « إن هذا مرعب حقًا .. لكن من هو (روبير جاكوب) أصلاً ؟ »

ضحكت ضحكة خافتة ، ثم نظرت لى نظرة من نوع (كف ـ عن ـ الشيطنة) وقالت :

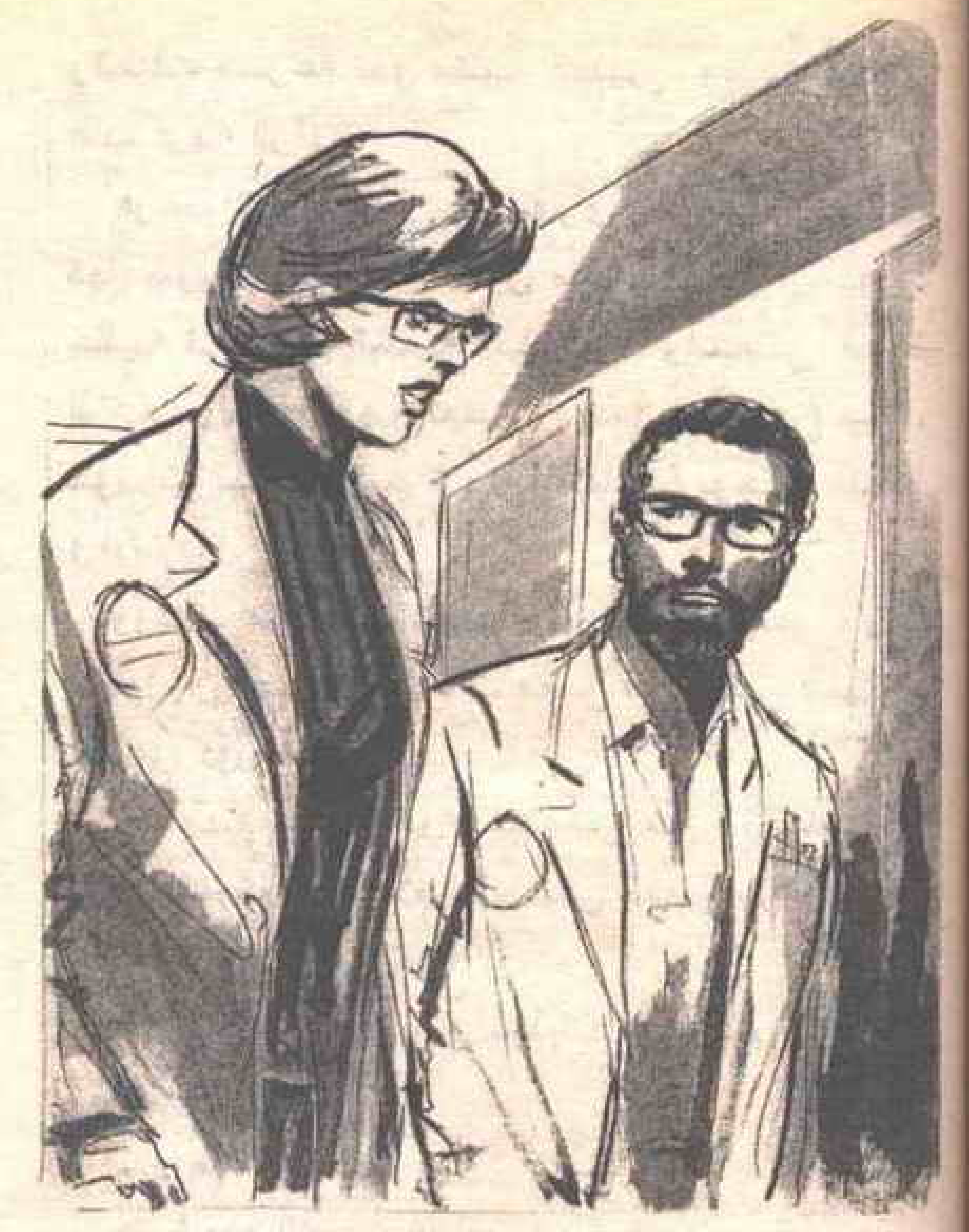
ـ « كن جادًا لحظة يا (علاء) .. إن (روبير جاكوب) شرطى من (الإنتربول) وهو يطالب برأسى!»

اتسعت عيناى رعبًا ، وابتلعت ريقى :

ـ « هل .. هل قابلته ؟ »

ـ « ليس بعد .. إن المدير قد أرسل فى طلبى الآن .. »

ـ « و .. وكيف عرفت هذه التفاصيل ؟ »



فكّرت لحظة وتأملتها .. كانت هادئة جداً .. لا شىء من الذعر أو التوجس بل هى أقرب إلى المرح والبشاشة ..

ـ « السكرتيرة .. لقد سمعتْ المحادثة بالـ (دكتافون) دون أن يعلمَ المدير بذلك ، وكتبتْ ورقةً صغيرةً أرسلتها لى كى لا أفاجأ بما سيطرح أمامى ! »

ـ « وهل بالورقة غير هذا ؟ »

ـ « ثمة كلام عن جرائم فى (كندا) .. لا أفهم .. »

فكَّرت لحظة وتأملتها .. كانت هادئة جدًا .. لا شىء من الذعر أو التوجس بل هى أقرب إلى المرح والبشاشة .. هذا عجيب حقًا ..

قلت لها وأنا أقلب أوجه الرأى :

ـ « هل أبلغت المحامى ؟ »

ومحامى (سافارى) كهل سويسرى يُدعى (ماكس) شىء ما ..

والمفترض أن يحضر مقابلة مهمة كهذه ..

قالت لى :

ـ « عليك إبلاغه ، لكن ليأت بطريقة لا تدلَ على أن السكرتيرة أبلغتنى بالأمر .. لا أدرى كيف .. أرجو أن تتصرف .. »

ثم كوَّرت أنفها بطريقة (التشنيكة) إياها ،

وانطلقت مسرعة نحو مكتب المدير ، وبقيتُ وحدى أقلب أوجه الرأى ..

هرعت إلى محامى (سافارى) ، وهو كما قلت كهل سويسرى .. أستاذ قانون متقاعد ، قرر أن يجرب حظه فى هذه البقعة النائية .. وأسعدنى الحظ إذ كان يزمع التوجه لمكتب المدير لموضوع ما ، فتوسلت إليه أن يسرع وأن (يفاجأ) بوجود ضابط (الإنتربول) هذا ..

ووقفت أمام باب المدير أدخن قلمى الحبر ، وأنا أحاول أن أجد كلمات ذات معنى فى ذهنى الخاوى الأبيض كورقة ..

بعد ربعِ ساعة خرج المحامى مع (برنادت) ، وكان منهمكًا فى الكلامِ معها حتى إنهما مرّا بى فلم يتوقفا أو يفسرا لى شيئًا ..

هرعت وراء المحامى فجذبته من كم سترته ، وسألته :

ـ « هيه ؟ مخالفة مرور أم ماذا ؟ »

هزّ شعره الأبيض الوقور ، وغمغم :

ـ « لا .. بل قتل ! »

وواصل الكلام مع (برنادت) .....

لم أفهم ما يقولان .. لقد أصابنى نوع من العته الشديد فوقفت أرمقهما .. كانت (برنادت) ـ كالعادة ـ مشوشة الشعر دامعة العينين .. هذه المرّة لم تبق متماسكة كما كانت ..

وكانت تردّد بلا انقطاع :

ـ « مستحيل ! إنهم حمقى ! »

فى النهاية تدخلت فى المحادثة بشىء من الغلظة :

ـ « هلا تعطّف أحد بشرح الأمر لحمار مثلى ؟! »

قال المحامى لى فى رفق :

ـ « الكنديون يبحثون عن قاتل تتابعى سفك دماء عدد كبير من الضحايا .. هناك شاهد ـ ويعمل مخبر شرطة ـ يزعم أن صديقه ـ وهو آخر الضحايا ـ كان يحقق فى شأن فتاة شقراء تُدعى (برنادت جونز) .. طبيبة فى (سافارى) .. ولديها سيارة (فولكس) زرقاء ..

« لقد بحثوا عنها كثيرًا بعد ما تكلم ذلك الأخير ، فوجدوها قد سافرت إلى (الكاميرون) الأمر الذى اعتبروه فرارًا .. وفى أسوأ الظروف هم لا يطلبون

إلا معرفة ما تعرفه عن الضحية الأخيرة ، وهو مخبر خاص يُدعى .. يُدعى ...... »

- « (بريدجز) .. »

قالتها (برنادت) فى شرود :

- « هنا ابتسم المحامى ، وتنهد :

- « هل ترين يا صغيرتى ؟ إن أحدًا لم يذكر الاسم فى هذه الجلسة ! »

صاحت فى حنق ، وقد احمرّ وجهها :

- « بل ذُكر ! أنا متأكدة ! »

- « لم يُذكر ! »

ثم ضربت بكفها على جبهتها كأنما تذكرت :

- « لقد عرفت الاسم من الجرائد الكندية .. لقد تحدثت كثيرًا عن جريمة القتل هذه .. كان هذا حديث الساعة فى (كندا) قبل مجيئى .. »

- « ليكن.. ولكن هل تعرفين (بريدجز) هذا حقًّا ؟»

- « بتاتًا .. ولم أره إلا فى الصحف .. »

تدخلت أنا فى المحادثة :

- « وماذا يريد هذا الـ (روبير) منها ؟ »

- « يريد استجوابها .. ولسوف يرسل (فاكس)

بالتحقيق إلى (كندا) .. أو يقوم باصطحابها معه لهناك لو طلبوا منه ذلك .. »

- « ومتى يتم التحقيق ؟ »

- « اليوم .. فى الثامنة مساء .. فى مكتبى .. »

ثم هزّ رأسه محييًا وابتعد :

- « هل فى ما يقوله شىء من الحقيقة يا (برنادت) ؟ »

- « لا أدرى .. »

- « كيف حصلوا على اسمك وعملك وكل شىء ؟»

- « لا أدرى ؟ »

- « هل تدارين عنى شيئًا ؟ »

- « لا أدرى .. »

وفجأة انفجرت بالبكاء ، وقبل أن ألفظ حرفًا كانت قد تلاشت من أمامى ، فعدت لعملى منهكًا حائرًا ..

* * *

استغرق التحقيق نحو ساعة ، ثم خرجت (برنادت) من مكتب المحامى شاحبة قليلاً .. سألتها عما حدث ، فقالت فى تهكم :

- « لا شىء .. لم تلفظ شفتاى فى حياتى كلها كل هذا العدد من أدوات النفى .. »

ـ « وهـذا يزيـد الأمـر سـوءًا .. هـم يتوقعون أنـك تعرفين (بريدجز) لكنـك لـم تقتليـه ، والآن يـزداد شكهم فى الأمر برمته حين تنكرين معرفة (بريدجز) ذاته .. »

ـ « تمامًا .. لكنهم لن يرحلونـى لـ (كنـدا) حيث يقطعون رقبتى ، على الأقل فى الوقت الحالى .. إنهم مرتبكون .. وكذلك أنا .. »

إن الأمر غامض حقًا .. فى البدايـة (برنـادت) ترى وجوه ضحايا السفاح بعد جراحـة زرع قرنيـة أجريت لهـا ، والآن هـى نفسـها متهمـة بأنها تعـرف السفاح ذاته أو ربما كان هى منذ البداية ! »

ما معنى هذا كله ؟ »

★ ★ ★

فرغ (آرثر شلبى) من مطالعة البريد الإلكترونى الـذى وصلـه ، ثـم قـال لـى وهـو يستدير فـى مقعـده ليواجهنى :

ـ « النتيجة واضحة الآن .. نحن نعرف كل شىء عن صاحب قرنيتى (برنادت) حسنائنا الشابة .. لقد حدث خلط ما جعل بيانات بنك العيون غير دقيقة ..

لكننـا واثقـون الآن مـن أن القرنيتين مأخوذتـان مـن امرأة فى الأربعين ، ضحيـة مـوت الدمـاغ بعد حـادث سـيارة .. لا يمكن التشكيك فى هـذه النتيجـة .. وكل ما ظنناه قبل هذا كان هراء .. »

سألته وأنا أدون البيانات :

ـ « منذ متى هى فى حالة موت الدماغ ؟ »

ـ « كانت فى غيبوبة منذ خمسة أشهر .. »

ـ « أى قبل أن ينتهى مسلسل القتل الشهير .. لقـد كان السفاح حيًا يُرزق آنئذ .. »

مضغ سيجاره وضحك ساخرًا حتى سعل :

ـ « كح كـح ! أحقًا .. كُـح .. تصدق هـذا الهـراء عن انطباع صورة القتلى على قرنيـة القـاتل لحظـة موتهم ؟ »

ـ « إن الأحـداث لـم تتفضل بإعطـائى تفسيرًا أقـل سخفًا .. »

وشكرته ، وغادرت المكان ......

الآن صار بوسعنا ـ دون خطأ كبير ـ أن نحـذف نقطة الرؤية بعينى سفاح ..

★ ★ ★

(برنادت) أيتها الحمقاء ..

لكم تثيرين غيظى ، ولكم تشعلين نيران حنقى ! إما أنك لا تعرفين شيئًا بحق إلى درجة البلاهة ، وإما أنك تدارين ما تعرفين إلى درجة الشيطنة .. هل أنت شيطانة أم ـ فقط ـ مجرد بلهاء أخرى ؟

أصارحك القول : إننى على وشك نفض يدى من الموضوع برمته ..

قديمًا وصف أحد شيوخنا الحرب بين الألمان والإنجليز على أرض (مصر) ، بأنها حرب (لا ناقة لنا فيها ولا جمل) .. وهو تعبير بدوى موفق يعبّر عن كل ما أشعر به الآن ..

دامعة العينين ـ كعادتها فى الفترة الأخيرة ـ رفعت وجهها وهمست :

ـ « سأتكلم ! »

* * *

١٠ ـ فلنجرب (شاركو) !

قالت (برنادت) :

ـ « أنا لا أعرف من هذا الموضوع سوى شىء واحد .. سيارتى الـ (فولكس) ليست ملكى وحدى .. إن (بولين كريستى) تستعملها كثيرًا .. بل إننى حين عدت إلى (سافارى) تركتها لها ، وهى مخالفة مرورية لكن (بولين) ليست من النوع الذى يقع فى المتاعب .. »

ـ « ومن هى هذه الـ (بولين كريستى) ؟ »

ـ « صديقة عزيزة .. عرفتها من أخيها (نورمان) رحمه الله .. »

قلت فى عصبية :

ـ « أنت تضغطين على أعصابى أكثر من اللازم .. ومن هو (نورمان) هذا ؟ »

فى مرارة ابتسمت وقالت :

ـ « مهندس.. تعرفته فى رحلتى الأولى بعد إجراء جراحة زرع القرنية ، وكنت أشعر بوحدة شديدة لهذا ملت إليه كثيرًا .. »

ابتلعت ريقى لأزيل المذاق المرير الذى شعرت به ، وسألتها :

ـ « ملت إليه أى أحببته ؟ »

ـ « لنقل هذا .. »

ـ « وهو ؟ »

ـ « أعتقد أنه كان يهيم بى .. »

ابتلعت ريقى من جديد ، ولزمت الصمت ..

قالت هى ، وقد لاحظت ضيقى :

ـ « قلت : رحمه اللَّه .. »

ـ « فليرحمنا اللَّه جميعًا .. كيف مات ؟ هل مات حبًا ؟ »

ـ « بل فى حادث مريب .. »

ثم فكَرت قليلاً ، وأردفتْ :

ـ « هناك من يقول إن هذا كان انتحارًا صريحًا .. لا أدرى .. لقد كان (نورمان) شخصية غير مستقرَة ، وكان كثير الشرود والاكتئاب وهو منفصل عن زوجته .. تصورَ أنه لم يكن يطيق (باخ) ؟ »

ـ « أحقًا ؟ »

قلتها فى غيظ .. أنا نفسى لا أطيق (باخَ)

ولا سواه ، لكنى أعيش وأحيا وأتنفس ، ولم يطالب أحد بإعدامى حتَى هذه اللحظة ..

ـ « أحقًا لم يكن يطيق (باخَ) ؟! يا للجنون ! إن حماقة البشر لا تنتهى عند حدَ .. ربما أحسن صنعًا إذ مات .. »

عدت أسألها بعد ما فرغت السخرية من جعبتى :

ـ « يمكن القول إذن ـ ودون خطأ كبير .. إن صديقتك هذه هى التى كان (بريدجز) يحقق بشأنها .. لقد بحث صديقه عن صاحبة (الفولكس) الزرقاء فافترض أنها أنت .. »

فى غموض همستْ :

ـ « ربما .. وربما لا .. »

ـ « ماذا تعنين ؟ »

ـ « ثمة بقع سوداء عديدة فى ذاكرتى .. ثمة فترة من فقدان الذاكرة المحدودCircumscribed amnesia .. مما يجعلنى غير واثقة من شىء .. أنا لا أريد ذكر اسم (بولين) حتَى لا أورطها فى أغلاطى أنا .. »

ـ « وهل هى غير مستقرة كأخيها ؟ »

ـ « إلى حدَ ما .. لكنها لن تنتحر علىَ ما أظن.. »

بللت بلسانى شفتىَ ، ثم سألتها :

ـ « ماذا حدث بعد مصرع (نورمان) هذا ؟ »

هزّت رأسها كأنما تنفض الذكرى ، وغمغمت :

ـ « لا شىء .. بكيت كثيرًا ثم نسيت الأمر كما يحدث دائمًا .. ثم إن الرؤى المفزعة بدأت تلاحقنى.. وصار عندى ما يشغلنى.. بعد هذا عدت إلى (سافارى) حاسبة أننى سأشفى هنا ، لكن الأمر ازداد سوءًا ، وكان ما تعرفه من إعطائى إجازة مفتوحة .. »

ـ « وهل قابلت (بولين) فى زيارتك الأخيرة ؟ »

ـ « طبعًا .. إن كلينا نحب (نورمان) بشدَة ، لكنه حبّ لا يولّد غيرة بل يولّد تآلفًا .. إن (بولين) تعيش فى شقة (نورمان) الآن ، وأحيانًا أزورها ، وكثيرًا ما تقترض منى سيارتى وتتولّى صيانتها وملأها بالوقود .. »

قلت مغتاظًا :

ـ « الآن تتحدثين عن حبه بشدَة ، بعد ما كان هذا ميلاً .. إننى ..... »

ثم قرّرت أن أخرس .. لماذا أضع حولها القيود

وهى لم تعطنى أى وعد من أى نوع ؟ لماذا أفترض أن حبى لشخص يجعله مطالبًا بالإخلاص لى ؟ هكذا ودون أى ارتباط عاطفى من ناحيته ؟

فلأخرس .. لقد مات (نورمان) لكن هذا لا يعزينى بحال ..

كل هذا ثم ـ والأدهى ـ لا يحب (باخَ) !

* * *

أدار د. (جونستون) زرّ جهاز (الكاسيت) فخرجت موسيقا كلاسية لا أعرفها .. لا بد أنها المصنف كذا من مقام (دو) الصغير للموسيقار (فلان الفلانى) ، تعزفها أوركسترا (كيت) السمفونية ..

سأل (برنادت) وهو يخفض الصوت :

ـ « هل تحبين (باخَ) ؟ »

تبادلت معى نظرة ذات معنى ، ثم قالت دون أن تبتسم :

ـ « إننى لأفضل الموت لو لم أسمعه .. »

ـ « هكذا .. عظيم جدًّا .. »

كانت الحادية عشرة مساءً ، وقد ساد الصمت فى أرجاء وحدة (سافارى) اللهم إلا صوت سرينة

الإسعاف تدوّى من حين لآخر ، حاملة كارثة لطبيب الاستقبال التعس ..

مدّ د. (جونستون) يده إلى مفتاح الضوء فخفض الإضاءة تمامًا ، واتخذ صوته نبرة رخيمة حانية تتناسب مع الهدوء ..

سألته همسًا لأننى لم أجرؤ على تمزيق ستار الصمت المقدس :

ـ « ماذا تنوى عمله بالضبط ؟ »

ـ « لقد حاولنا تحطيم الحاجز السميك الذى تضعه على ذاكرتها باستعمال أساليب (فرويد) ، وفشلنا .. الآن فلنجرب (شاركو) ! »

ـ « (شاركو) ؟ »

ـ « نعم .. (جان شاركو) أستاذ (فرويد) الفرنسى، والذى كان يؤمن بقابلية التنويم المغناطيسى على كشف خبايا النفس .. لقد تمرّد (فرويد) على هذا الرأى فيما بعد وانتهج منهج التحليل النفسى باعتباره الطريقة المثلى .. »

ـ « كنت أحسب المنوّمين المغناطيسيين نوعًا من الحواة يبهرون الناس فى المسارح .. »

ابتسم فى حكمة :

ـ « هكذا الناس جميعًا .. لكن التنويم المغناطيسى علم محترم ، وتطبيقاته الطبية لا حصر لها ؛ بدءًا من التبوّل الليلى وانتهاء بمتلازمة (رينو) التى تصيب أصابع اليد فى الطقس البارد .. »

ثم همس لـ (برنادت) :

ـ « ستقومين بتكرار لفظة جميلة مثل (غروب) مرارًا وتكرارًا .. ستشعرين بارتخاء فى جفنيك .. يا له من شعور جميل ! لا تقاوميه .. فلنبدأ .. »

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..
غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

★ ★ ★

ـ « أنت تسمعيننى الآن يا (برنادت) .. يمكنك الكلام معى .. لكن جسدك وجفنيك فى غاية الثقل .. كم أن جفنيك ثقيلاااااااااان ! »

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

سألته همسًا بعد ما أطمأننت إلى أن الكلام غير ممنوع :

ـ « هل تمّ بهذه السهولة ؟ »

- « معظم الناس يمكن تنويمهم مغناطيسيًا .. على عكس الشائع .. »

- « وهل يمكنها أن تنهض وتنفذ ما تؤمر به ؟ »

- « لا .. يحتاج هذا إلى درجة أعمق من التنويم لا يمكن تطبيقها إلا على عشرة بالمائة من الناس .. ويسمونها درجة (الجوال) أو Somnambulism .. وكلما ازداد التنويم المغناطيسى عمقًا كلما صار من الصعب على المريض أن يتذكر ما حدث له وقتها .. نحن الآن نستعمل درجة خفيفة جدًا من التنويم المغناطيسى يمكن تسميتها (سِنَة) أو (ترانس) .. إنها تسمع ما نقول ، وستتذكر أكثره حين تفيق ، ومن المستحيل أن تطلب منها طلبًا تأبى عمله وهى متيقظة .. »

- « هم م م م »

عاد ينظر إلى (برنادت) التى أغمضت عينيها ، وهومت برأسها قليلاً شأن من يحلم.. وبرفق سألها :

- « أنت الآن فى (كندا) بعد الجراحة التى تمَت على عينيك .. هل أنتِ هناك الآن ؟ »

- نعم .. نعم .. »

- ماذا حدث بالضبط ؟ »

وتحركت شفتا (برنادت) ، وراحت تحكى .....

* * *



وتراجعت للوراء .. استدارت مذعورة ..
يمسك بسكين المطبخ العملاقة فى يده اليمنى ..

١١ - لكنى أحبك حقًا ..

لماذا يا (نورمان) تركت المفاتيح فى درج مكتبك ؟
موسيقا (موتسارت) تتردد فى الحجرة ..

وهى تحاول جاهدة أن تدارى الأوراق فى الدرج ..
رباه ! لم تفطن من قبل إلى الفوضى التى أحدثتها ..
مستحيل أن تجد الوقت الكافى كى ..

إنه الآن خلفها تمامًا .....

وتراجعت للوراء .. استدارت مذعورة ..

★ ★ ★

يمسك بسكين المطبخ العملاقة فى يده اليمنى ،
ويحاول الفهم بيده اليسرى لو أن الأيدى أعضاء فهم ..

عيناه تتحركان من وجهها المذعور إلى الأوراق فإلى الصورة .. قصة واضحة جدًا لا تحتاج إلى مترجم ..

- « مـ .. ماذا فهمت يا حمقاء ؟ »

تتراجع للوراء أكثر وهى تنشج :

- « لا .. لا آآه ! »

تغطى وجهها بشعرها الأشقر ، وتبكى كما لم تبك من قبل ..

يتقدم أكثر ، ويرفع يده مفسرًا :

- « مـ .. ماذا فهمت يا حمقاء ؟ إننى أهوى أخبار الجريمة .. كل الناس تهتم بها .. صفحة الجريمة فى أية صحيفة هى الأكثر شعبية .. لا أدرى ما ...... »

لم يعد لديها وراء .. تميل بجذعها فى زاوية حادة مع سطح المكتب وهى تردد كالمجنونة :

- « لا .. لا .. إنه أنت .. أنت ! »

لماذا لم تخدعه ؟ لماذا لم تتظاهر بأنها صدقته ؟ ببساطة لأنها لم تعد تملك طاقة نفسية فى بطارية روحها .. طاقة تسمح بالادعاء أو التمثيل ..

ولم تخش الموت لأنها كانت مصدومة .. لقد فقدت الحلم فلم يعد للغد معنى ولا أهمية .. فقط كانت غريزة البقاء تحركها دون إرادة منها ..

كان يتقدم بسكين المطبخ منها ، مرددًا أعذارًا لا معنى لها ..

وفى النهاية لا تدرى متى جذبها من ذراعها ،

فاقتادها إلى مقعد المكتب ، وجلس على الأرض أمامها .. كان يبكى ..

- « لن تفهمى أبدًا .. »

- « حقًا أنا لا أفهم .. »

- « إنه ذلك النداء .. أنت تعرفين ذكر النحلة .. كل مهمته فى الحياة هى أن يخصب الملكة ثم يموت ، وهو لا يعرف لنفسه هدفًا آخر .. لقد جئت أنا الدنيا بهذا النداء ، ولم أعرف طريقة أخرى للحياة .. وما فعلته فعلته لأنه لم يكن أمامى مفرّ .. »

- « أنت مجنووووون ! »

قالتها من بين دموعها ، وانتابتها رجفة عنيفة لا تصدق ..

غمغم فى رفق :

- « ربما أنا مجنون .. ربما أنا فيلسوف لم يفهمه أحد .. لكن مهمتى قد انتهت .. ذكر النحلة فرغ من عمله ولم يعد أمامه سوى مصير واحد .. إن النهاية دانية جدًا .. أعرف هذا .. »

وتأمل السكين وارتجفت شفتاه :

- « يمكننى أن أقتلك الآن .. لكنى أحبك حقًا .. لا يمكننى أن أوذيك حتى لو أردت هذا .. »

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

ـ « فرصة أخيرة يا (برنادت) .. لا تخبرى أحدًا بما رأيتِ .. »

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

★ ★ ★

طبول (الكيكويو) تدقّ .. تدقّ ..

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

★ ★ ★

صراع فى روحها بين واجبها نحو المجتمع وواجبها نحوه .. اصبرى بضعة أيام وسينتهى كل شىء ..

أنا لم أعد قاتلاً يا (برنادت) .. لقد انتهت مهمتى.. لهذا لن أمسك بسوء .. إذهبى فأنتِ آمنة ..

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

وكان الصراع فى روحها يضطرم .. قضت الليلة تصرخ فى فراشها وتتلوى والعرق يغمر وسادتها مخلوطًا بالدموع ..

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

فى الصباح نسيت كل شىء .. لم تعد تذكر شيئًا عن تجربة البارحة ..

لقد دفنت الذكرى فى عقلها .. إنه التفاعل الهستيرى الحقّ .. الأب الذى يرى مصرع ابنه وينسى اللحظة ذاتها ، أو يصاب بعمى بلا سبب ، ويقول الأطباء ، هذا عمى هستيرى .. هذا فقدان ذاكرة هستيرى ..

لكن الذكرى ظلت تتململ تحت الغبار .. تخرج ذراعًا مشوهة متقلصة من آن لآخر ..

الوجوه !

الوجوه الباكية المولولة .. وجوه من رأتهم فى الصور من ضحايا (نورمان) .. كلهم يطاردونها ويدعونها للكلام ..

لكنها صمتت .. صمتت لأنها لم تعد تذكر شيئًا ..

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

★ ★ ★

ساعدها فى ذلك اليوم على حمل كل الأشياء الثقيلة التى جلبتها إلى شقته ، وسألها فى مرح :

ـ « ما هذه الأشياء ؟ هل أحضرت لى إفريقيا هنا ؟ »

ـ « بالفعل ! »

وعلى الجدار علقت قطعة عملاقة من جلد الجاموس عليها رسوم بدائية للحيوانات والرجال ، ودرعًا عملاقًا زاهى الألوان تحته سيفان تقاطعا ، وأخبرته أنها من حاجيات (البانتو) ..

سألها وهو يتأمل المشهد :

ـ « لماذا جلبتها هنا ؟ »

ـ « لأشعر بأننى فى دارى ! »

ـ « هل لديك تذكارات لقبائل (الماساى) ؟ »

ـ « لقد انقرض (الماساى) تقريبًا .. مثلما انقرض الـ (ماو ماو) .. لهذا تساوى تذكاراتهم مالاً طائلاً .. »

ثم همست باسمة :

ـ « هل تحب هذه الأشياء ؟ »

ـ « إنها مخيفة لكنها أفضل من (باخ) على كل حال ! »

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

★ ★ ★

أما ما لم تعرفه قط فهو أن اللقاء فى المتنزه ولص الحقيبة لم يكونا سوى تدبير محكم منه .. كى يتعرفها ..

كان قد اختارها لتكون ضحيته التالية ، لكنه أحبها بحق ، ووجد نفسه زاهدًا كل الزهد فى زيادة عدد ضحاياه ..

عندها أدرك أن ذكر النحلة فرغ من مهمته ..

غروب .. غروب .. غروب .. غروب ..

رقصة الـ (جافارا) فى ضوء القمر ..

★ ★ ★

ـ « والآن يمكنك أن تستيقظى يا (برنادت) .. »

فتحت عينيها وقد بدا كأنما تفيق من سبات عميق ..

همس د. (جونستون) وهو يمدّ يده ليغلق جهاز (الكاسيت) :

ـ « الآن أنت تذكرين وتعرفين كل شىء .. »

قلت أنا وقد فهمت أكثر الحقيقة :

ـ « الآن يمكنها أن تواجه عقلها الباطن وبهذا تتخلص من الرؤى .. إننا مدينون فى هذا لـ (شاركو) ! »

★ ★ ★

١٢ - هـذا الجزء لم يكتبه

د. (علاء عبد العظيم)

تأملتْ (بولين كريستى) علبـة أقراص علاج السكر الفارغة ، وابتسمت.. إن العرق يحتشد على جبينها ، ونبضها يسرع ، ووعيها يتبدد ببطء .. إنها أعراض نقص السكر واضحة تمامًا ، ويمكن إنقاذها بحقن (الدكستروز) المركز فى وريدها حالاً .. لكن لماذا تفعل ؟

وأعادت تأمل خطاب الوداع الذى تركه أخوها لها .. يشرح فيه كل شىء .. ولكم أثار ذهولها أن أخاها هو السفاح الذى روّع (كندا) .. لكنها كانت تعرف شيئًا أو شيئين عن التاريخ المرضى لأسرتها ، وتعرف مصطلح (الصرع النفسى الحركى) الذى طالما لفظه الأطباء ، أمامها ..

معنى هذا - ببساطة - أن أخاها كان يفعل أشياء لا يذكرها ، ولا يصدّق أنه فعلها .. وكان يطيع

ومضات جنونه غير واع .. ثم يفيق ليجد أنه فعل أشنع الأشياء ..

هى أيضًا ورثت الصرع ذاته .. لم تدرك هذه الحقيقة إلا حين وجدت بقعة الدم فى صالة شقة أخيها ، وحقيبة سيدة تُدعى (مكورميك) ..

لكم أصابها الذعر وقتها ! وحتى هذه اللحظة لم تفهم كيف فعلتها وكيف حملت الجثة الثقيلة إلى المصعد ليلاً ، ونقلتها فى سيارتها الـ (فولكس) .. لا .. بل سيارة (برنادت) ..

لم تصدّق ما يحدث لكنها وجدت نفسها مضطرة لتصديقه ..

استعانت بمخبر خاص منحته جلّ مدخراتها كى يخبرها بحقيقة ما تفعله .. ولم تصدق لحظة تقريره الغريب .. لقد فهم الغبى كل شىء ، وأخبرها بما كانت تتوقعه : إنها تواصل مسيرة الدم التى بدأها أخوها ..

وتأملت المسدس الذى اشترته منذ وفاة أخيها .. ثلاث طلقات .. لراكب السيارة الشهم .. للفتى

الماجن الذى تعرفته فى السينما .. للمخبر الذى عرف أكثر مما يجب ..

الحق أنها لم تعد راغبة فى الاستمرار ..

لقد سببت متاعب لا حصر لها للمجتمع ، ثم لصديقتها ومحبوبة أخيها (برنادت) ..

لكن كل شىء سيتضح .. وستتكلم (برنادت) كثيرًا عن صاحبتها التى تقترض سيارتها من آن لآخر ..

لسوف يأتون سريعًا ، لكنهم لن يجدوها حية ..

قال الأطباء : إن الصرع النفسى الحركى يمكن علاجه بجراحة استئصال بسيطة : جراحة نفسية كما قالوا .. ها هى ذى تقضى على المرض بطريقة أكثر جذرية .. تقتل المريض نفسه ..

وضحكت كثيرًا ..

ضحكت حتّى لم تعد تشعر بشىء .....

* * *

ما زال إنقاذ (بولين) ممكنًا ..

إنها لم تمت بعد ..

صه ! يخيل إلىّ أن هناك طرقات حازمة على

الباب .. هل يجدونها ؟ هل ينقذونها ؟ وما مصيرها لو نجت ؟ هل يستمر مسلسل الرعب بعدها ؟

إن الإجابة على أسئلة كهذه لا تهمنا كثيرًا فى (سافارى) ..

د. علاء عبد العظيم

أنجاواندبيرى

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد

لكى يظل حياً ولكى يظل طبيـ

الكابوس

.. وكان (نورمان) ينتمي إلى نفس القائمة التي ينتمي إليها صاحب الوجه المنشورة صورته .. فتقلصت جذور شعرها رعباً ..

(نورمان) يشبه السفاح، ويحتفظ بكل خبر نُشر عن السفاح .. فما معنى هذا ؟..

عليها أن تفرّ في هدوء وقبل أن يشعر بشيء ..

ولكن ....

المؤلف

د. أحمد خالد توفيق

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم
الفصيلة